من بلاغة الاستعارة

في

أقـــــوال الحسن البصري

الدكتور

حسن محمد الشريف

مدرس البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بنين بالديدامون شرقية

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام علي خير خلق الله ، سيدنا محمد ، وعلي آله وصحبه ،وارض اللهم عن سادتنا آل بيت رسول الله - صلي الله عليه وسلم - وبعد

فان تراثنا الإسلامي أمانة في أعناقنا ، يلزم الاهتمام به ، والرجوع إليه ، والإفادة منه خاصة كتاب الله ، وسنة نبيه محمد - صلي الله عليه وسلم - وما كان لخلفائه الراشدين وتابعيهم بإحسان إلي يوم الدين من خطب ، وأقوال تنطق بالحكمة ، وتمس حياتنا في كل مناحيها ،

وإذا كنا قد قرانا كثيرا عن الحسن البصري فما زلنا في حاجة لمعرفة شخصيته عن قرب ، وذلك يتأتى من خلال دراسة كلامه : فالعلاقة وثيقة بين الإنسان وبين نطقه: فالكلمة عنوان صاحبها ، وجزء من شخصيته ، فهي تنبيء عن ثقافة صاحبها ومكنون نفسه : فدارس البلاغة دائما وأبدا مولع بالأساليب الرائقة ، والعبارات القوية، والألفاظ المعبرة ، والمشاعر الفياضة ، والأحاسيس الراقية ، فإذا وجد ضالته هام بها ،ودرسها محاولا استنطاقها عله يصل إلي شخصية صاحبها .

والحسن البصري من كبار التابعين وإمامهم ، وله باع طويل في شتى العلوم ، وقد حباه الله - تعالي - بحافظة قوية ، وعقل راجح ، وذوق خالص ، وفطرة سوية ، ومنطق قوى ، وطبع سليم ، وحكمة بالغة ، وموهبة فذة جعلت لكلامه مذاقا خاصا ،وطبعا فريدا، وهذا ما حفزني للبحث عن الاستعارة في أقوال الإمام الحسن البصري ، فجمعت أكثر من أربعين موطنا من مواطن الاستعارة ، معتمدا على المراجع ، والمصادر المختلفة : كإحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالي ، والاعتصام لأبى إسحاق الشاطبي ، والبحر المديد لأحمد بن محمد المهدي ، والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ ، وتاريخ الطبري لابن جرير، و تفسير حقي ، و جمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت ، وحلية الأولياء لآبى نعيم ، و شعب الإيمان للبيهقي ،و العقد

الفريد، لابن عبد ربه ، و الكامل في اللغة والأدب المبرد ، ونهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ، والزهد لابن حنبل وغيرها ،،
ثم قمت بتحليلها تحليلا بلاغيا محاولا الوقوف علي جانب من سر بلاغتها ،
وقد قسمت موضوعي هذا إلي ثلاثة فصول : يسبقها تمهيد تناولت فيه التعريف بالحسن البصري ، ونبذة عن الاستعارة وقيمتها البلاغية ،
وجعلت الفصل الأول : بلاغة الاستعارة في مقام : النصح والإرشاد ،
والفصل الثاني : بلاغة الاستعارة في مقام : الحكمة ،
والفصل الثالث : بلاغة الاستعارة في مقام : التحذير من الدنيا ،
ثم خاتمة وثبت للمراجع ،،،

وبعد فالشكر موصول لكل من قدم لي المساعدة في إنجاز هذا البحث المتواضع راجيا من الله أن يحقق الهدف المنشود منه ، وحسبي أنني حاولت ، واجتهدت ، والكمال لله وحده ،،
والله اسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ،،
ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطانا ، والحمد لله أولا وآخرا ،،

د حسن الشريف

التمهيـــــــــــــد

ويشمل التعريف بالحسن البصري ، ونبذة عن الاستعارة ومكانتها

أولا : التعريف بالحسن البصري :[1]

الحسن البصري هو : الحسن بن أبـي الحسن البصـري يكنـى أبـا سـعيد ، مـن سـادات التابعين وكبرائهم ، إمام أهل البصرة ، وحبر الأمة ، وخير أهل زمانـه حليف الخـوف والحزن ، أليف الهم والشجن ، عديم النـوم والوسـن ، أحـد العلمـاء الفقهـاء الفصـحاء الشجعان النساك.

كان- رحمه الله - جامعا ، عالما ، رفيعـا، فقيهـا، ثقـة ، حجـة، مأمونـا، عابـدا، ناسـكا، كثير العلم، فصيحا، جميلا، وسيما ، حتى سقط عن دابته فحدث بأنفه ما حدث.

وكان أبوه من سبي ميسان، وهو صقع بـالعراق.مولى لبعض الأنصـار ، وكانـت أمـه تخدم أم سلمة زوج النبـي - صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ- فكانـت أم سلمة تبعث أم الحسن فربما غابت في حاجة ، فيبكي وهو طفل فتعطيـه أم سلمة- رضـي الله عنهـا - ثديها تعلله به إلى أن تجيء أمه، فدر عليه ثديها فشربه، فيرون أن تلك الحكمـة والفصـاحة من بركة ذلك.

تربى في بيت النبوة، وكانت أم سلمه تخرجه إلى الصحابة فيدعون له، ودعا له عمر بن الخطاب، فقال "اللهم فقهه في الدين وحببه إلى الناس". ولقد حفظ الحسن القرآن قبل بلوغه الرابعة عشرة .

---

[1] ينظر سير أعلام النبلاء محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي مؤسسة الرسالة بيروت - ١٤١٣، الطبعة: التاسعة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ، محمد نعيم العرقسوسي ٥٦٤/٤ومابعدها ونثر الدر ١١٧/٥، وفيات الأعيان و انباء أبناء الزمان، تأليف: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، دار النشر: دار الثقافة - لبنان، تحقيق: احسان عباس(ج ٢ / ص ٧٠ وما بعدها ،حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، تأليف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار النشر: دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٥، الطبعة: الرابعة٢ / ١٤٧ وما بعدها و لطبقات الكبرى، تأليف: محمد بن سعد دار صادر - بيروت -ج٧/ص ١٥٦

مولده و نشأته :
ولد الحسن- رحمة الله عليه - بالمدينة لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب- رضي الله عنه - وحنكه عمر بيده، و شب في كنف علي بن أبي طالب، ونشأ في الحجاز بمكان يسمى وادي القرى ، وحضر الجمعة مع عثمان بن عفان- رضي الله عنه - وسمعه يخطب، وشهد يوم استشهاده وكان عمره أربع عشرة سنة.

وفي سنة سبع وثلاثين من الهجرة انتقل إلى البصرة ، فكانت مرحلة التلقي والتعلم، حيث استمع إلى الصحابة الذين استقروا في البصرة لمدة ست سنوات ،وفي سنة ثلاث وأربعين من الهجرة عمل كاتبا في غزوة لأمير خراسان الربيع بن زياد لمدة عشر سنوات في عهد معاوية رجع من الغزو واستقر في البصرة حيث أصبح أشهر علماء عصره .

عظمت هيبته في القلوب ، فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، لا يخاف في الحق لومة لائم .

و قبل موت الحسن قال رجل لابن سيرين: رأيت كأن طائراً أخذ أحسن حصاة بالمسجد، فقال: إن صدقت رؤياك مات الحسن، فلم يكن إلا قليلاً حتى مات الحسن،[١] وأغمي على الحسن عند موته، ثم أفاق فقال: لقد نبهتموني من جنات وعيون ومقام كريم[٢].

وتوفي الحسن في أول رجب سنة عشر ومائة، وكانت جنازته مشهودة، صلوا عليه عقيب الجمعة بالبصرة، فشيعه خلق كثيرون ، و ازدحموا عليه، حتى إن صلاة العصر لم تقم في الجامع.
وقال عبد الله بن الحسن: إن أباه عاش نحوا من ثمان وثمانين سنة[١].

---

[١] - الطبقات الكبرى ١٧٤/٧
[٢] - سير أعلام النبلاء٥٨٧/٤

صفاته وشمائله :
كان الحسن البصري - رحمه الله - مليح الصورة، بهيا، وكان عظيم الزند ، فقيها، ثقة، حجة، مأمونا، ناسكا، كثير العلم، فصيحا، وسيما. وكان من الشجعان الموصوفين في الحروب، شبيها بعمر بن الخطاب وبصحابة رسول الله : فعن حميد بن هلال قال : قال لنا أبو قتادة (عليكم بهذا الشيخ يعني الحسن بن أبي الحسن فإني والله ما رأيت رجلا قط أشبه رأيا بعمر بن الخطاب منه)، و عن علي بن زيد قال : أدركت عروة بن الزبير ، ويحيى بن جعدة ، والقاسم فلم أر فيهم مثل الحسن، ولو أن الحسن أدرك أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم- وهو رجل لاحتاجوا إلى رأيه[١]

جمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة وكان - رضي الله تعالى عنه - غاية في الفصاحة، تتصبب الحكمة من فيه.

قال أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصري ومن الحجاج ابن يوسف الثقفي، فقيل له: فأيهما كان أفصح ؟ قال: الحسن[٢].

عن الأعمش أنه قال : مازال الحسن البصري يعي الحكمة حتى نطق بها
وكان إذا ذكر عند أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين قال ذاك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء .
عن حماد بن زيد: سمعت أيوب يقول: كان الحسن يتكلم بكلام كأنه الدر، فتكلم قوم من بعده بكلام يخرج من أفواههم كأنه القئ. وعن أيوب قال لو رأيت الحسن لقلت إنك لم

---

[١] - الطبقات الكبرى ٧/ص١٦١
[٢] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء،١٤٧/٢

تجالس فقيها قط ، وعن الاصبغ بن زيد: سمع العوام بن حوشب، قال: ما أشبه الحسن إلا بنبي.[١]
وقال عوف: ما رأيت رجلا أعلم بطريق الجنة من الحسن ، وقال قتادة: كان الحسن من أعلم الناس بالحلال والحرام ، و قال هشام بن حسان: كان الحسن أشجع أهل زمانه.
كان الحسن كثير الحزن، عظيم الهيبة، قال أحد الصحابة : "ما رأيت أحدا أطول حزنا من الحسن، ما رأيته إلا حسبته حديث عهد بمصيبة.

أما عن سبب حزنه فيقول الحسن -رحمة الله - :"يحق لمن يعلم أن الموت مورده، وأن الساعة موعده، وأن القيام بين يدي الله - تعالى - مشهده، أن يطول حزنه". وكان الحسن البصري يصوم الأيام البيض، والأشهر الحرم ، والاثنين والخميس[٢]

كلام الحسن البصري :
كان الحجاجُ يقولُ : أخطبُ الناس صاحبُ العمامة السوداء بين أخصَاص البصرة ، إذا شاء تكلمَ ، وإذا شاءَ سكت يعني الحسن ،
قيل لخالد بن صفوان : مَن أبلغُ النَّاس ؟ قال : الحَسنُ البصريُّ لقوله (فضحَ الموْتُ الدُّنيا ، لوْ عقل أهلُ الدُّنيا خربت الدُّنيا) وأكثر كلامه حكم وبلاغة[٣]

ثانيا : الاستعارة وبلاغتها :
معلوم أن الكلام إما حقيقة وإما مجاز ،
(فالحقيقة : الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح به التخاطب ، والمجاز هو ما استعمل فيما لم يكن موضوعا له لا في اصطلاح به التخاطب ولا في غيره والمجاز مفرد ومركب ، أما المفرد فهو : الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له على وجه يصح مع قرينة عدم إرادته ،

---

[١] - سير أعلام النبلاء٥٧٢/٤
[٢] - ينظر سير أعلام النبلاء ٥٧٥/٤
[٣] - وفيات الأعيان (ج ٢ / ص٧٢)

والمجاز ضربان مرسل ، واستعارة ، لأن العلاقة المصححة إن كانت تشبيه معناه بما هو موضوع له فهو استعارة ، و إلا فهو مرسل)[١]
والاستعارة فن دقيق من فنون البيان وروضة من رياضه لها مكانة رفيعة، ومنزلة عالية في بلاغة الأساليب وإيضاح المعاني وتقريرها ،
وقد عدها الشيخ عبد القاهر من الأصول التي عليها مدار حسن الكلام ،ففي بداية حديثه عن التشبيه والتمثيل والاستعارة يقول : (هذه أصول كثيرة كان جل محاسن الكلام إن لم نقل كلها متفرعة عنها وراجعة إليها ،وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها ،وأقطار تحيط بها من جهاتها) ثم يضيف فيقول : (وهى أمد ميداناً وأشد افتناناً ، وأكثر جرياناً ،وأعجب حسناً وإحساناً ،وأوسع سعة ،وأبعد غوراً وأذهب نجداً في الصناعة وغوراً من أن تجمع شعبها وشعوبها ،وتحصر فنونها وضروبها نعم وأسحر سحراً ،وأملأ بكل ما يملأ صدراً ويمتع عقلا ،ويؤنس نفساً ويوفر أنسا، وأهدى إلى أن تهدى إليك عذارى قد تخير لها الجمال ،وعنى بها الكمال وأن تخرج لك من بحرها جواهر إن باهتها الجواهر مدت في الشرف والفصيلة باعاً لا يقصر وأبدت من الأوصاف الجليلة محاسن لا تنكر) [٢]

الاستعارة في اللغة:
الاستعارة في اللغة: مأخوذة من الاستعارة الحقيقية وهى نقل الشيء من حيازة فرد إلى فرد آخر ، يقول ابن الأثير :(وإنما سمي هذا القسم من الكلام استعارة لأن الأصل في الاستعارة المجازية مأخوذة من العارية الحقيقية التي هي ضرب من المعاملة وهي أن يستعير بعض الناس من بعض شيئاً من الأشياء ،ولا يقع ذلك إلا من شخصين بينهما سبب معرفة ما يقتضي استعارة أحدهما من الآخر شيئاً ،و إذا لم يكن بينهما سبب معرفة بوجه من الوجوه فلا يستعير أحدهما من الآخر شيئاً ،إذ لا يعرفه

---

[١] ينظر الإيضاح شروح التلخيص - دار السرور – بيروت ٥/٤ وما بعدها
[٢] أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني السيد محمد رشيد رضا محمد على صبيح الطبعة السادسة ١/ ٢٩

حتى يستعير منه ، وهذا الحكم جار في استعارة الألفاظ بعضها من بعض فالمشاركة بين اللفظين في نقل المعنى من أحدهما إلى الآخر كالمعرفة بين الشخصين في نقل الشيء المستعار من أحدهما الآخر .)[١]

الاستعارة في اصطلاح البيانيين: هي استعمالُ اللفظُ في غير ما وضعَ له لعلاقةِ (المشابهةِ) بين المعنَى المنقولِ عنه والمعنِى المستعمل فيهِ، مع (قرينةٍ) صارفةٍ عن إرادةِ المعنَى الأصليِّ ،

(والاستعارةُ) ليست إلا (تشبيهاً) مختصراً، لكنها أبلغُ منهُ فالاستعارة مجازٌ علاقته المشابهة.[٢]

أركان الاستعارة :

للاستعارة أركان ثلاثة: المستعار له وهو المشبّه ،المستعار منه، وهو المشبّه به، و المستعار وهو اللفظ المستعار أي المنقول من معناه اللغوي إلى المعنى المجازى .

الفرق بين الاستعارة والتشبيه:

قالوا في التفريق بين الاستعارة والتشبيه : أنّه يشترط في الاستعارة تناسي التشبيه، وادّعاءُ أنَّ المشبَّه فردٌ من أفراد المشبّه به، ولا يُجْمَعُ فيها بين المشبَّه والمشبَّه به على وجه يُنْبئ عن التشبيه، ولا يُذْكَرُ فيها وجه الشَّبه، ولا أداة التشبيه لا لفظاً ولا تقديراً.

هل الاستعارة مجاز لغوي أم مجاز عقلي؟

رأى جمهور البيانيين أنّ الاستعارة مجاز لغوي، وقيل: هي مجاز عقلي، بمعنى أنّ الاستعارة تعتمد على أمر عقليّ، لا لغويّ،

هذا و كما يرى العلوي فالخلاف في ذلك يسير ، والأمر فيه قريب ، وليس وراء النزاع كبير فائدة [٣]

---

[١]- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير المكتبة العصرية للطباعة والنشر - بيروت - ١٩٩٥م محمد محي الدين عبد الحميد ١/ ٣٤٧ والطراز للعلوى عبد الحميد هنداوى المكتبة العصرية بيروت الطبعة الأولى ١٠٤/١

[٢] - ينظر الإيضاح شروح التلخيص ٤ /٤٥

[٣] - الطراز للعلوى ١ / ١٣١

أقسام الاستعارة :
تنقسم الاستعارة انقساماً أوليّاً إلى قسمين:
القسم الأول: الاستعارة في اللّفظ المفرد، وهي التي يكون المستَعارُ فيها لفظاً مفرداً،
القسم الثاني: الاستعارة في اللّفظ المركّب، وهي الّتي يكون اللّفْظُ المستعار فيها كلاماً مركباً من عدّة ألفاظ مفردة،
الاستعارة في المفرد :
تنقسم الاستعارة في المفرد إلى أقسام متعددة باعتبارات مختلفة
فهي تنقسم باعتبار اللفظ المستعار إلى أصليّة وتبعيّة [١]

فالأصليّة: وهي ما كان اللّفظ المستعار فيها اسماً جامداً،نحو قوله- تعالى - : (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور)[٢]

والتبعيّة: ما كان اللّفظ المستعار فيها فِعْلاً، نحو قوله – تعالى - :(إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ) [٣]
أو اسما مشتقا نحو قوله - تعالى - : (فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ)[٤]
أو حرفا نحو قوله - تعالى - : (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ)[٥]

كما تنقسم الاستعارة باعتبار ذكر أحد طرفيها إلى تصرحيّة ومكنيّة :
فالتصريحية : هي ما صرح فيها بلفظ المشبه به المستعار للمشبه بعد حذفه نحو قوله - تعالى - :(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) ([٦])

---

[١] - ينظر الإيضاح شروح التلخيص ١٠٨/٤ وما بعدها
[٢] - إبراهيم : ١
[٣] - الحاقة :١١
[٤]- الحاقة : ٥
[٥] - طه : ٧١
[٦]- الحجر : ٩٤

والمكنيّة: وهي ما حذف فيها لفظ المشبه به استغناء ببعض لوازمه التي بها كماله أو قوامه في وجه الشبه ، و أن إثبات ذلك اللازم تخييل أو استعارة تخييلية [١]

وتنقسم الاستعارة باعتبار الملائم إلى مطلقة ومُرَشَّحة ومجرَّدة[٢]
فالمُطْلَقة : وهي التي لم تقترن بشيء يُلائم احد الطرفين ، أو اقترنت بملائم للمستعار منه وملائم المستعار له ، وسمّيت مُطْلَقة لإطلاقها عن التقييد بما يُلائم أحد طرفيها نحو قوله - تعالى - :(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)[٣]

والمرشحة : وهي ما قرنت بما يلائم المستعار منه،وسمّيت مُرَشَّحة لأنّها قويت وأكدت بذكر ملائم المستعار منه نحو قوله - تعالى - (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ)[٤]

والمجرّدة : وهي ما اقترنت بما يلائم المستعار له ،وسمّيت مجرّدة لتجردها عما يقوى فيها دعوى الاتحاد ،لان ذكر ما يلائم المستعار له وهو المشبه يقربها من المعنى الحقيقي ويضعف فيها دعوى اتحاد الطرفين[٥] نحو قوله - تعالى - : (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) [٦]

والترشيح أقوى ثم الإطلاق ثم التجريد وذلك لان الاستعارة كما هو معلوم مبنية على تناسى التشبيه ، ودعوى اتحاد المشبه به للمشبه فكل ما يؤكد هذا المعنى فهو يقوى الاستعارة ولا شك إن ذكر المناسب للمشبه به يجعل حديث التشبيه بعيدا من الأذهان ويخيل أن المستعار مستعمل في حقيقته ، لذلك كان الترشيح أقوى ويليه الإطلاق ،لأنه ترك الاستعارة على حالها دون أن يذكر معها ما يقويها أو يضعفها ، أما التجريد فهو

---

[١] - عروس الأفراح شروح التلخيص ٤/ ١٥٣
[٢] - ينظر شروح التلخيص ٤/ ١٢٧
[٣] - الحجر : ٩٤
[٤] - البقرة : ١٣
[٥] - أفنان البيان د الشحات أبو ستيت ١٩٩٦م ١٧٩
[٦] - النحل : ١١٢

عود إلى التشبيه فبعد أن تمت الاستعارة عاد المتكلم يذكر بالتشبيه فيذكر ما يناسبه وذلك يضعف من شان الاستعارة)[١]

هذا وترشيح الاستعارة هو تقوية لها وحدها فلا ينافى ذلك أن يكون التجريد أبلغ منه في بعض الأحيان بالنسبة لجملة الكلام وذلك نحو قوله - تعالى - (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)[٢]

فاللباس مستعار للأحداث والمصائب التي لحقت بأهل القرية أو لما علا وجوههم وأجسادهم من صفرة وهزال وكما نرى (فقد جاءت الآية على التجريد وأدت الغرض المنوط بها على أبلغ وجه لأن للقران الكريم أسلوبه المتميز المعجز الذي لا يخضع لقوانين البشر ، وكان التجريد في الآية أبلغ من الترشيح لان الغرض من الآية الكريمة الدلالة على أمرين : شدة الإصابة و شمولها وعمومها وجعل الاستعارة مرشحة لا يحقق الدلالة على كل من الأمرين فلو قيل : (كساها لباس الجوع) ليكون ترشيحا لأفاد الشمول ولم يفد الشدة لان الكساء يلامس الجسد فالإحساس به من طريق اللمس وهو اضعف من الإحساس بطريق الذوق ولو قيل : (فأذاقها طعم الجوع) ليكون ترشيحا أيضا لأفاد الشدة ولم يفد الشمول الذي يدل عليه اللباس فكان نظم الآية على ما جاءت عليه محققا للغرض المقصود [٣]

القسم الثاني: الاستعارة في اللّفظ المركّب وتسمى المجاز المركب والتمثيل الاستعارة التمثيليّة وهي : اللفظ المركب المستعمل في غير ما وُضِعَ له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي وذلك كقوله - تعالى - **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)**[٤]

فقد شبه حال من يتعجل بالحكم في أمر من أمور الدين قبل أن يحكم الله فيه ويتلقاه الرسول – صلى الله عليه وسلم – بحال من يتقدم بين يدي متبوعه عند المشي في

---

[١] - ينظر مواهب الفتاح شروح التلخيص ١٣٤/٤

[٢] - النحل : ١١٢

[٣] - المطول للتفتازانى طبعة أحمد كامل ٢٧٧

[٤] - الحجرات : ١

الطريق بجامع عدم المتابعة في كل ، وحذف المشبه ، وجيء بالمشبه به مكانه على سبيل الاستعارة التمثيليّة[١]

قيمة الاستعارة وبلاغتها :
الاستعارة فن دقيق من فنون البيان ، وروضة من رياضه لها مكانة عالية في بلاغة الأساليب ومنزلة رفيعة في إيضاح المعاني وتقريرها ، وكما هو معلوم فبلاغة التشبيه آتية من ناحيتين :
الأولى : طريقة تأليف ألفاظه ،
والثانية : ابتكار مشبه به بعيد عن الأذهان لا يجول إلا في نفس أديب وهب الله له استعدادا سليما في تعرف وجوه الشبه الدقيقة بين الأشياء ، وأودعه قدرة على ربط المعاني وتوليد بعضها من بعض إلى مدى بعيد لا يكاد ينتهي

وسر بلاغة الاستعارة لا تتعدى هاتين الناحيتين فبلاغتها من ناحية اللفظ أن تركيبها يدل على تناسى التشبيه ، ويحملك عمدا على تخيل صورة جديدة تنسيك روعتها ما تضمنه الكلام من تشبيه خفي مستور .....

وأما بلاغة الاستعارة من حيث الابتكار وروعة الخيال وما تحدثه من أثر في نفوس سامعيها ، فمجال فسيح للإبداع ، وميدان لتسابق المجيدين من فرسان الكلام [٢]

---

[١] - أفنان البيان : ١٩٦
[٢]- جواهر البلاغة السيد احمد الهاشمى دار الكتب العلمية بيروت الطبعة السادسة ٢٧٠ و٢٧١

الفصل الأول
بلاغة الاستعارة في كلام الحسن البصري
في مقام النصح والإرشاد

الموطن الأول :

قال الحسن البصري - رحمه الله - : **(يا عجبا لأقوام بلا زاد ، وقد نودوا بالرحيل، وحبس أولهم لآخرهم وهم قعود يلعبون**[١]

الزاد : هو ما يتزود به الإنسان من طعام وشراب ومال ليستعين به علي إتمام مشواره والوصول إلي غايته ، وأفضل الزاد التقوى قال - تعالي - : **(وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**[٢]

ومن هذا المنطلق فان الحسن البصري يعجب من أقوام بلا زاد وقد نودوا بالرحيل متخذا من الاستعارة وسيلة لتوضيح الصورة وتجليتها : فصور الرحلة إلي الآخرة، والتزود لها بالأعمال الصالحة للوصول إلى النعيم الأبدي بصورة المسافر الذي يحرص علي التزود بما يبلغه غايته ، فأطلق الزاد على الأعمال الصالحة علي سبيل الاستعارة : حيث شبه الأعمال الصالحة بالزاد بجامع أن كلا منهما يوصل إلي الغاية: فالأعمال الصالحة توصل الإنسان إلى الجنة والنعيم السرمدي كالزاد الذي يوصل الإنسان إلي غايته ، ثم استعار الزاد للأعمال الصالحة على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية التي جسدت الأعمال الصالحة ، وأبرزت دورها في تحقيق الغاية المنشودة ، ولذلك يعجب من هؤلاء القوم الذين نودوا بالرحيل وأعلنوا ببدء الرحلة ومع ذلك فلم يستعدوا بالزاد المطلوب الذي يحتاجون إليه ، ولم يكن إعلامهم

---

[١] - تفسير حقي - تفسير حقي (٢ / ٣٨٤) الكامل في اللغة والأدب محمد بن يزيد المبرد، محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر العربي الطبعة الثالثة ١٩٩٧ م (١ / ٢٦) جمهرة خطب العرب أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية بيروت ٢ / ٥٠٠

[٢] - البقرة ١٩٧

ببدء الرحلة إلا ابتلاء بنقص الأنفس والأموال والثمرات ، وتقلب الأحوال وعدم ثباتها على حالة واحدة ، ومن هنا فان قوله: (نودوا) استعارة كذلك حيث شبهت معايشة الأحداث والابتلاءات والتغيرات بالنداء بجامع التنبيه والإيقاظ في كل ، ثم استعير النداء للمعايشة للأحداث ومكابدة الابتلاءات مبالغة في تأثيرها ، وكأنها ناطقة بينة واضحة الدلالة لا تدع مجالا للشك أو التردد ، فهي مفصحة عن رحيل قريب كما حدث للسابقين

ثم تتعانق الصورة البيانية وتتكاثف فيأتي قوله : (وحبس أولهم لآخرهم) [١] ليكتمل مشهد التعجب من حالهم فهم لم يحبسوا ، وإنما هم مجموعون عاجزون عن الحركة ، مقيدون بالأغلال ، مثقلون بالأوزار؛ فاستعار لهم الحبس توضيحا للصورة ، وتقريبا لها ، وذلك على سبيل الاستعارة التبعية التصريحية ،،

ثم يأتي هذا الطباق ليجمع بين طرفي البداية والنهاية : بين الأول والأخر ليقطع أمال المتشككين ، وليشمل الحكم الجميع ، ثم تختم الصورة بهذه الكناية التي تظهر مدي انشغالهم وغفلتهم وهم قعود غافلون لاهون .

الموطن الثاني :

لما ولي عمر بن هبيرة الفزاري[٢] العراق ، وأضيفت إليه خراسان ،وذلك في أيام يزيد بن عبد الملك ،استدعى الحسن البصري ، ومحمد بن سيرين ، والشعبي وذلك في سنة ثلاث ومائة فقال لهم : (إن يزيد خليفة الله ، استخلفه على عباده ، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته ، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة، وقد ولاني ما ترون ، فيكتب إلي

---

[١] - والحبس معروف يقال حَبَسَه يَحْبِسُه حَبْساً فهو مَحْبُوس وحَبِيسٌ واحْتَبَسَه وحَبَّسَه أمسكه عن وجهه والحَبْسُ ضدّ التخلية واحْتَبَسَه واحْتَبَسَ بنفسه يتعدّى ولا يتعدّى وتَحَبَّسَ على كذا أي حَبَس نفسه على ذلك لسان العرب بن منظور دار صادر بيروت، الطبعة: الأولىحبس - (ج ٦ / ص ٤٤) ومن المجاز: جعل أمواله حبساً على الخيرات. أساس البلاغة الزمخشري، دار الفكر ١٩٧٩م حبس - (ج ١ / ص ٧٤)

[٢] - عمر بن هبيرة ابن معاوية بن سكين الأمير أبو المثنى الفزاري الشامي أمير العراقين ووالد أميرها يزيد كان ينوب ليزيد بن عبد الملك فعزله هشام وقد ولي غزو البحر سنة سبع نوبة قسطنطينية وجمعت له العراق في سنة ثلاث ومئة ثم عزل بخالد القسري فقيده وألبسه عباءة وسجنه فتحيل غلمانه ونقبوا سربا أخرجوه منه فهرب واستجار بالأمير مسلمة بن عبد الملك فأجاره ثم لم يلبث أن مات سنة سبع ومئة تقريبا سير أعلام النبل ج٤/ص٥٦٢

بـالأمر مـن أمـره فأقلـده مـا تقلـده مـن ذلـك الأمـر فمـا تـرون ؟) فقـال ابـن سـيرين ، والشعبي قولا فيه تقية ، فقال ابن هبيرة : ما تقول يا حسن ؟ فقال : (يـا ابـن هبيـرة خف الله في يزيد ولا تخف يزيد فـي الله ، إن الله يمنعك من يزيد وإن يزيد لا يمنعك من الله ، وأوشك أن يبعث إليك ملكا فيزيلك عن سريرك ، ويخرجك مـن سـعة قصـرك إلى ضيق قبرك، ثم لا ينجيك إلا عملك ، يـا ابـن هبيـرة إن تعص الله فإنمـا جعل الله هذا السلطان ناصرا لدين الله وعباده **فلا تركبن دين الله ، وعباده بسلطان الله** ؛ فإنـه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)

فأجازهم ابن هبيرة وأضعف جائزة الحسن فقال الشعبي لابن سيرين : سفسفنا له فسفسف لنا[1]

في وصيته لابن هبيرة يذكره بطاعة لله - تعالي - وعدم عصيانه في دينـه وعبـاده؛ فإنمـا جعـل السـلطان أداة لنصـرة ديـن الله والمستضـعفين مـن عبـاده ، ويحـذره أن لا يتحول من معين وناصر إلي أداة قمع وبطش وطغيان ، وان لا يوظف ما وهبه الله من نعـم لقمـع العبـاد والـبطش بهـم ، واتخـاذ الـدين وسـيلة لتحقيـق أغـراض دنيويـة ، أو مكاسب شخصية .

و قوله (لا تركبن دين الله وعباده) استعارة ؛ لأنه كما هو معروف أن الركـوب هـو: اعتلاء الراكب علي المركوب ليوصـله إلـي حيث يشـاء ؛ فـالركوب هنـا ليس ركوبـا حقيقيا ، وإنما شبة القمع والمغالبة والسيطرة بالركوب بجامع التحكم والتمكن في كل ،ثم استعير الركوب واشتق منـه (تركـب) علـي سـبيل الاسـتعارة التصـريحية التبعيـة وما من شك أن هذه الاستعارة قد صورت القمع والاذلال للدين والعباد بصورة حسية مشاهدة يراها الجميع ويلمسونها ، بل ربما عايشوها فجسدت القمع والاذلال والتوجيه والتحكم والسيطرة أحسن تصوير .

ويلاحـظ أنـه ذكـر الاسـم الجليـل مـع إمكانيـة الاسـتغناء عنـه بضـميره فـي قولـه : (وسلطان الله) استحضارا لعظمة الله – تعالي - و زيادة في ترهيبـه ، وطـرق أذنـه بذكر انعم الله- تعالي - لعله يتعظ ويعتبر ويتراجع ،

---

[1] - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج٢/ص٧١ السَفْسافُ: الرديءُ من كلّ شيء، والأمرُ الحقيرُ وفي الحديث: " إنَّ الله يحب مَعالِيَ الأمور ويكره سَفْسَافَها " . والسَفْسافُ: ما دَقَّ من التراب، الصحاح في اللغة وصحاح العربية الجوهري تحقيق أحمد عبد الغفور عطاردار العلم للملايين لبنان الطبعة الاولى ١٩٥٦ م سفسف- (ج ١ / ص ٣١٩)

ثم يختتم وصيته بما يسد عليه حجته في أنه مأمور ولا يملك أن يرفض ما يملي عليه - (بأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) .

الموطن الثالث :

كتب عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - لما ولِيَ الخلافة إلى الحسن بن أبي الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن - رحمه الله - :

(اعلم يا أمير المؤمنين، أن الله جَعَلَ الإمامَ العادلَ **قِوامَ كلِّ مائل ،وقصْد** كل جائر، وصلاحَ كل فاسد ، وقُوة كل ضعيف ، و نَصَفَة كل مظلوم ، ومَفْزَع كل ملهوف .... واذكر يا أمير المؤمنين الموتَ وما بعده وقلة أشياعِك عنده وأنصارك عليه ؛ **فتزوّد له** ولما بعده من الفزع الأكبر .... لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا **تسلك بهم سبيل الظالمين** ، ولا تسلّط المستكبرين على المستضعفين ؛ فإنهم لا يرقُبون في مؤمن إلاً ولا ذِمّة ؛ **فتبوء بأوزارك وأوزارٍ** معَ أوزارك ، **وتحمل أثقالَكَ وأثقالاً مع أثقالك** .... ولا تنظرّ إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قُدرتك **غداً وأنت مأسور في حبائل الموت** ، وموقوفٌ بين يدي الله – تعالى - في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد (عَنَتِ الوُجُوهُ لِلحَيّ القَيّوم) [1]

في رسالته الشهيرة ، والتي بعث بها إلى أمير المؤمنين - عمر بن عبد العزيز- يعدد له فيها صفات الإمام العادل ، في إطناب غير ممل ، وتطويل تطلبه مقام النصح والإرشاد والتوضيح والبيان ، في تطبيق عملي لمطابقة الكلام لمقتضى الحال : فأمير المؤمنين شغوف متلهف يسال عن صفات الإمام العادل ، وقلما يسال أمير عن ذلك ! فاغتنمها الإمام من باب شعوره بالمسؤولية ، وإسداء النصح لله ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم ،

فهاهو ذا يعدد صفات الإمام العادل كما يراها موافقة لكتاب الله ولسنة نبيه محمد - صلي الله عليه وسلم - بادئا الحديث ببيان أهمية العدل وقدسيته : فالله - تعالى- هو

---

[1] - العقد الفريد بن عبد ربه الأندلسي، دار إحياء التراث العربي – بيروت /لبنان – ١٩٩٩م، الطبعة: الثالثة ج١/ص٤٤،٤٥ والآية طه١١١

الذي جعل الإمام العادل قِوامَ كلِّ مائل ، وقَصْد كل جائر، وصلاحَ كل فاسد ن وقُوة كل ضعيف ، و نَصفَة كل مظلوم ومَفْزَع كل ملهوف .
ومعنى قِوامَ كلِّ مائل : أي منصف لكل جور وظلم
والميل : هو الانحناء والاعوجاج، وما كان من متطلبات الإمام أن يقيم كل مائل يميل، وإنما المراد هنا عودة الأمور إلى نصابها ، وإرجاع الحقوق إلى مستحقيها؛ وذلك بالحكم بين الناس بالسوية ، والوقوف بجانب المستضعفين، والأخذ على يد الظالمين ،،
وكما نرى فالميل هنا مستعار للجور والظلم ، ثم اشتق منه (مائل) بمعنى جائر على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، واستعارة الميل للظلم فيه مبالغة للظلم وتصويره بصورة محسة ومشاهدة ،
ثم ذكره بالموت وما بعده وقلة أشياعه عنده وأنصاره عليه آمرا إياه بالتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر ،،
والاستعارة في قوله :(فتزود له)لان التزود هو اتخاذ الطعام للسفر ، وهو تفعل مشتق من اسم جامد وهو الزاد حيث شبه تحصيل الأعمال الصالحة التي توصل إلى حسن العاقبة في الآخرة بإعداد الزاد للسفر، ثم استعير التزود لتحصيل الأعمال الصالحة، ثم اشتق منه (تزود) بمعنى حصل علي سبيل الاستعارة التصريحية التبعية والمراد بالأمر هنا الحث والتحضيض على فعل الخير الذي يترتب عليه الجزاء في الآخرة .
وهذه الاستعارة لا شك أنها تشعر المرء بأنه في رحلته الدنيوية في سفر حقيقي ، وأن عليه أن يتزود بما يبلغه غايته بخير الزاد وهو التقوى والعمل الصالح ، ورحم الله الإمام الفخر الرازي حين ذكر أن الإنسان له سفران : سفر في الدنيا وسفر من الدنيا فالسفر في الدنيا لابد له من زاد وهو الطعام والشراب والمركب والمال ، والسفر من الدنيا لابد فيه من زاد وهو معرفة الله ومحبته والإعراض عما سواه، وهذا الزاد خير من الزاد الأول لوجوه :
الأول : أن زاد الدنيا يخلصك من عذاب موهوم وزاد الآخرة يخلصك من عذاب متيقن
وثانيها : أن زاد الدنيا يخلصك من عذاب منقطع ، وزاد الآخرة يخلصك من عذاب دائم

وثالثها : أن زاد الدنيا يوصلك إلى لذة ممزوجة بالآلام والأسقام والبليات ، وزاد الآخرة يوصلك إلى لذات باقية خالصة عن شوائب المضرة ، آمنة من الانقطاع والزوال ،
ورابعها : أن زاد الدنيا وهي كل ساعة في الإدبار والانقضاء ، وزاد الآخرة يوصلك إلى الآخرة ، وهي كل ساعة في الإقبال والقرب والوصول ،
وخامسها : أن زاد الدنيا يوصلك إلى منصة الشهوة والنفس ، وزاد الآخرة يوصلك إلى عتبة الجلال والقدس ، فثبت بمجموع ما ذكرنا أن خير الزاد التقوى .[١]
ثم يحذره من الحكم بين عباد الله بحكم الجاهلية ، وألا يسلك بهم سبيل الظالمين فيقول : "لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلية ولا تسلك بهم سبيل الظالمين " قوله (سبيل الظالمين)استعارة تصريحية لان السبيل هو : الطريق وما وضح منه ويؤنث وسبيل الله طريق الهدي الذي دعا إليه[٢]
وسَبيل كلّ قوم طريقتهم التي يسلكونها في وصفهم الخاصّ ، فالسبيل مستعار للاعتقادات والأفعال والعادات ، التي يلازمها أحد ولا يبتغي التحوّل عنها ، كما يلازم قاصد المكان طريقاً يبلغه إلى قصده ،[٣]
وخص السبيل بالظالمين ؛ لقبح فعلهم ، وجرم مسلكهم ؛ فالظلم هو وضع الشيء في غير موضعه .
وهذه الاستعارة لا شك أنها صورت الاعتقادات الفاسدة ، والأفعال الظالمة والعادات القبيحة خير تصوير وأفضل بيان ؛ إذ جعلتها كلها طريقا لا يصل بصاحبه إلا إلي الضياع والخسران ،
وهذه الاستعارة استعارة قرآنية قال- تعالي- (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ)[٤] وقال أيضا (وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا)[٥]
وهى مناسبة لمقام النصح والإرشاد والتحذير من الركون إلي الظالمين وأعمالهم .

---

[١] - التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي دار الكتب العلمية – بيروت – ٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى ١٨٥/٣
[٢] - لسان العرب سبيل ٣١٩/١١
[٣] - التحرير والتنوير الطبعة التونسية محمد الطاهر بن عاشور دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس ١٩٩٧ (ج ٤ / ص ٣٥)
[٤] - يوسف : ١٠٨
[٥] - الأعراف ١٤٦

ثم تابع نصائحه الغالية فينهاه عن تسليط المستكبرين علي المستضعفين فقال : (ولا تسلط المستكبرين علي المستضعفين ؛ فإنهم لَـــا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَـا ذِمَّـةً؛ فتبوء بأوزارك وأوزارٍ معَ أوزارك ، وتحمل أثقالكَ وأثقالاً مع أثقالك)

الأثقال هنا هي : الأوزار والخطايا ، والتعبير عنها بالأثقال للإيذان بغاية ثقلها وكونها فادحة لأنه راع ومسئول عما تحت يديه .
وحمل الأثقال هنا استعارة تمثيلية حيث : شبهت هيئة من ظلم نفسه وتسبب في ظلم الآخرين وتحمل تبعاتهم ومسؤوليتهم أمام الله - تعالى - بحال من يحمل أثقالا وأمتعة يبوء بها كاهله بجامع الهيئة التي في كل من التحمل والشقاء والعنت ، ثم استعير المركب الدال علي هيئة المشبه به للمشبه علي طريق الاستعارة التمثيلية .
ولا شك أن هذه الاستعارة مع إيجازها عملت عمل الإطناب من إيضاح المعنى وحسن تصويره ، والكشف عنه ؛ فقد أبرزت الخفي في صورة الجلي ، والأمر المعقول وهو تحمل الأوزار والمسؤولية في صورة المحسوس؛ ليقر في النفس ويتمكن منها ، كما أضيفت الأثقال لضمير الخطاب ؛ لبيان مدي ارتباطها به واتصاله بها ، وأنها لازمة له متسببة عنه مما يعكس مقدار المسؤولية وفداحة النتيجة ، و يمكن جمل التعبير كله علي سبيل الكناية لبيان مدي الشقاء والعنت والعناء .
ثم يختم نصائحه بقوله : (ولا تنظر إلي قدرتك اليوم ولكن انظر إلي قدرتك غدا وأنت مأسور في حبائل الموت) [1]
فيذكره بما سيؤول إليه أمره حين تزول عنه المناصب، ويفقد نفوذه وسلطانه ، ويكون عاجزا مسلوب الإرادة لا حول له و لا قوة ، فجاء بالجملة الحالية (وأنت مأسور في حبائل الموت) تكشف عن مقدار الضعف والهوان : حيث شبهت حالة الاحتضار حين تسلب القوى وتتعطل القدرات ، ويصبح الإنسان ضعيفا عاجزا لا حول له و لا قوة يرجو رحمة ربه ويخشى عذابه بالأسر بجامع التقييد في كل ، ثم اشتق من الأسر أسير بمعنى عاجز مسلوب الإرادة علي سبيل الاستعارة التبعية ،

---

[1] - حبائل الموت : أسبابه ، والحِبالة : التي يصاد بها ،وجمعها حَبائل ، قال :ويكنى بها وفي الحديث النِّساء حَبائل الشيطان أي مَصايدُه واحدتها حِبالة بالكسر وهي ما يصاد بها من أيّ شيء كان لسان العرب - (ج ١١ / ص ١٣٤)

وهذه الاستعارة قد أوضحت بما لا يدع مجالا للشك حالة الاحتضار وما فيها من ضعف وعجز، وسلب للإرادة ، وخوف وإشفاق وقلق وترقب ، وتقييد وتطلع وغيرها من المعاني الموحية المعبرة عن هذا الموقف الجلل - عبرت عنه الاستعارة خير تعبير، وقربته إلي الأذهان في صورة محسة ومشاهدة .
والموت لا حبائل له وإنما هي مستعارة لسكراته ،
أو شبه الموت بصائد مفترس له حبائل لا يفلت منها من وقع في شراكه ، ثم حذف المشبه به ، واتى بشيء من لوازمه (الحبائل) علي سبيل الاستعارة المكنية ، وإسناد هذا اللازم للمشبه استعارة تخييلية وهذه الاستعارة تضفى على الموت مزيدا من الرهبة والخوف منه .

الموطن الرابع :

قال الحسن البصري : (أدركت أقواماً كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنانيركم و دراهيمكم " يقول : كما لا يخرج أحدكم ديناراً ولا درهماً إلا فيما يعود عليهم نفعه **كذلك لا يحبون أن يخرجوا ساعة من أعمارهم** إلا فيما يعود عليهم نفعه ([1])
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : (نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ [2]
ومن هذا المنطلق فان الإمام يلفت النظر إلي ضرورة اغتنام ساعات العمر فيما يعود نفعه وعدم التفريط في أي ساعة من ساعاته إلا فيما ينفع ويفيد ؛ فيخبر انه أدرك أقواما من هذا القبيل فهم لا يضيعون أوقات حياتهم إلا فيما ينفعهم في أخرتهم واستعمل أفعل التفضيل (أشفق) للدلالة علي شدة حرصهم ثم اتخذ من التشبيه وسيلة لتقريب الصورة ، كما اعتمد علي المشاكلة اللفظية[3] في قوله : (يخرجوا)

---

[1] البحر المديد أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس دار النشر / دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الثانية / ٢٠٠٢ م - ١٤٢٣ هـ (ج٣ /ص ١٠٢

[2] - صحيح البخاري دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت ١٩٨٧، الطبعة: الثالثة، مصطفى ديب رقم ٥٩٣٣- (ج ٢٠ / ص ٣٣)

[3] - المشاكلة: ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أوتقديراً، فالأول كقوله تعالى (تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ)[المائدة : ١١٦]ومثال التقدير قوله تعالى (صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ) [البقرة : ١٣٨] ينظر الإتقان في علوم القرآن السيوطي، دار الفكر لبنان ١٩٩٦م، تحقيق: سعيد المندوب (١ / ٣٣٨)

فالأول : إخراج حقيقي بخلاف الثاني فهو فقد وتفريط لساعات العمر، فقد شبه قضاء الوقت والتفريط فيه بالإخراج بجامع الفقد في كل ، ثم استعير الإخراج للتخلي والتفريط علي سبيل الاستعارة التبعية التي أظهرت مدى الحرص علي الوقت ومقدار البخل به ، وعدم التفريط فيه إلا فيما يعود عليهم نفعه ،

إنهم قوم أدركوا قيمة أعمارهم فضنوا بها علي إهدارها إلا فيما يعود عليهم نفعه ، تماما كالبخيل الحريص علي أمواله ، لا ينفق منها إلا بعد تفكير وروية
ولا شك أن هذه الاستعارة أوضحت مدى حرص هؤلاء القوم على أعمارهم ، وإدراكهم لقيمة أوقاتهم .

الموطن الخامس :

قيل للحسن: إن فلاناً اغتابك، فبعث إليه طبق حلوى وقال:(**بلغني أنك أهديت إلي** حسناتك فكافأتك؛[١]

لقد اهدي - رضي الله عنه - طبقا من الحلوى لرجل اغتابه هدية ومكافأة له وحينما سئل في ذلك قال للرجل : (أهديت إلي حسناتك فكافأتك)
إن ما فعله الإمام الحسن البصري - رضي الله عنه - إهداء حقيقي ، وما قدمه هدية حقيقية كذلك ؛ لأنها صدرت منه عن رضا وطيب خاطر ، أما ما فعله الرجل فليس من الهدية في شي ، وكيف يكون هدية وقد ذكره بما يكره في غيبته ! فكان جزاؤه عند الله - تعالي - كما جاء في الحديث الشريف[٢] أن تؤخذ من حسناته مقدار مظلمته فتعطى لمن تم اغتيابه ، فهذا الأخذ لم يكن عن طيب خاطر كما لم يكن علي سبيل الهدية، وإنما هو عقاب من الله - تعالي - بإنقاص حسنات المغتاب وتحويلها لرصيد المغتاب في حقه !

---

[١] - وفيات الأعيان - (ج ٢ / ص ٧١)

[٢] - عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال أتدرون ما المفلس ؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار صحيح مسلم : دار إحياء التراث العربي بيروت محمد فؤاد عبد الباقي- (٤ / ١٩٩٧) رقم ٢٥٨١

إنه النصح والإرشاد والتوجيه بالقول والعمل ، فكانت هذه الاستعارة التصريحية التبعية التي أخرجت هذا العمل في صورة ملموسة ومشاهدة فيها من الإيلام والتوجيه والنقد الهادف المهذب ما يجعل المرء يفكر بعد ذلك مرات عدة قبل أن يقدم علي عمل مثل هذا مرة أخري ،

ومما زاد في قوة هذه الاستعارة وتأكيدها وإخراجها من عالم الغيب والإخبار إلي عالم الواقع والشهادة - هذه الهدية الحقيقية التي تنبىء عن طيب نفسه ، وحسن خلقه - رضي الله عنه - في الرد علي الإساءة بالإحسان قولا وفعلا .

الموطن السادس :

عن أبي بكر الهذلي قال : كنا عند الحسن البصري إذ أقبل وكيع بن أبي سود فقال : يا أبا سعيد ، ما تقول في دم البراغيث يصيب الثوب أيصلي فيه ؟

فقال الحسن :(**يا عجبا ممن يلغ** [١] **في دماء المسلمين** كأنه كلب ، ثم يسأل عن دم البراغيث) فقام وكيع ينخلج في مشيته تخلج المجنون ؛ فقال الحسن (لله في كل عضو منك نعمة اللهم لا تجعلنا ممن يتقوى بنعمتك على معصيتك[٢]

لقد جاء الإسلام لحقن الدماء والمحافظة علي الأرواح وعدم ترويع الآمنين، حتى من غير المسلمين، أما عن حرمة المسلم فقد شدد القران في النهى عن قتله، فما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ، ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه كما توعده الله- تعالى - في قوله : (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا[٣]

ومن هنا فان الإمام الحسن البصري يعجب من هذا السائل الذي يسال عن دم البراغيث ، ويده ملطخة بدماء المسلمين،

---

[١] - الولوغ فى اللغة يقال وَلَغَ الكلب في الإناء يَلِغُ وُلوغاً، أي شرب ما فيه بأطراف لسانه. الصحاح في اللغة - (ج ٢ / ص ٢٩٤) ومن المجاز: فلان يأكل لحوم الناس ويلغ في دمائهم أساس البلاغة - (ج ٢ / ص ٢٧)

[٢] - الحيوان الجاحظ، دار الجيل - لبنان/ بيروت ١٩٩٦م، : عبد السلام محمد هارون ج١/ص٢٢٥ ، و فضيلة الشكر لله على نعمته محمد بن جعفر بن محمد بن سهل السامري دار الفكر - دمشق - ١٤٠٢، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد مطيع الحافظ ، د. عبد الكريم اليافي ج١/ص٥٩

[٣] - النساء ٩٣

لقد كان السائل واليا من الولاة الظالمين الذين لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، فاستباحوا دماءهم ، و مارسوا القتل والتذبيح : فأزهقوا الأرواح البريئة ، والدماء الذكية ، ومزقوا الأجسام الطاهرة من معارضيهم ومخالفيهم في الرأي ، ثم بعد ذلك ينام ملء جفونه لا تشغله هذه الدماء الذكية التي أريقت، ولا الأجساد الطاهرة التي مزقت ، ولا النفوس البريئة التي زهقت ، بل جل ما شغله ويقض مضجعه - دم البراغيث ؛ فكان حريا بأن يتعجب الإمام من ورعه المزيف ، وحرصه الممقوت معربا عن مدي دهشته ، ومقدار تعجبه ، متخذا من الاستعارة التبعية وسيلة من وسائل إبراز جريرته ؛ فاستعار الإمام - رضي الله عنه - الولوغ للانغماس في ممارسة القتل بوحشية ، ثم اشتق منه المضارع للدلالة علي تجدد الانغماس والاستمرار في الاقتراف ،،

والحقيقة فان هذه الاستعارة تكشف عن مقدار الانغماس وهيئته ، وقد كان بوسع الإمام أن يعبر عن اقتراف جريمة القتل بأساليب عدة ، ولكنه- رضي الله عنه- آثر استعارة الولوغ ليس للمبالغة فحسب ، وإنما لتبشيع هذا العمل ، والتهويل من شانه ، وإظهار مدى الوحشية في ممارسة إزهاق هذه الأرواح البريئة؛ فكان اختيار الولوغ وهو خاص بالكلب للإشارة إلى ذلك ، كما يشير إلى حقارة فعله .

الموطن السابع :

(عن مبارك بن فضالة قال: سمعت الحسن وقال له شاب: أعياني قيام الليل. فقال: **قيدتك خطاياك.**)[1]

قيام الليل من النعم العظيمة التي دعا إليها الإسلام ، ورغب فيها : فعَنْ بِلاَلٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- :« عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ ، وَإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى - وَتَكْفِيرٌ لِلسَّيِّئَاتِ ، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ ، وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ »[2]

---

[1] - صفة الصفوة صفة عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، دار المعرفة - بيروت - ١٩٧٩، الطبعة: الثانية، محمود فاخوري - د.محمد رواس قلعه جي- (ج٣ / ص ٢٣٥)

[2] - السنن الكبرى للبيهقي مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد الطبعة : الأولى (٢ / ٥٠٢)

وان العبد ليحرم قيام الليل بسبب المعاصي : فعن ابن مسعود قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- : « إياكم والمعاصي إن العبد ليذنب الذنب فينسى به الباب من العلم ، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل ، »[١] ومن هنا فان الإمام الحسن البصري - رضي الله عنه - يرشد هذا الشاب الذي أعياه قيام الليل ، واضعا يده على موطن الداء : « فقد كبلته خطاياه »

و المراد بالتكبيل هنا : التثبيط و الإعاقة ، وقد ورد على سبيل الاستعارة التبعية: حيث شبهت إعاقة الذنوب ، وتعجيزها للمرء عن الطاعة بالتكبيل بجامع العجز وعدم القدرة في كل ، ثم استعير المشبه به للمشبه ، ثم اشتق منه (كبلت) بمعنى أثقلت وحالت ،،
وهذه الاستعارة فيها بيان لتأثير الذنوب على الفرد ، فهي كالأغلال والقيود التي تقيد الإنسان وتحد من حركته نحو الإصلاح ؛ فيصبح عاجزا لا حول له ولا قوة ؛ فينفر من الطاعة ويبتعد عنها ، ولا يقدر على أدائها لأن الخطايا قد استولت على نفسه وشغلت فكره وألهت جوارحه ، واستنفذت قواه فحيل بينه وبين الطاعة ،
وفى إسناد التكبيل للخطايا مجاز عقلي حيث أن الخطايا لا تكبل حقيقة وإنما هي سبب من الأسباب قال - تعالى - (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ[٢]

الموطن الثامن :

عن ابن شوذب قال لما مات الحجاج قال الحسن البصري : (**اللهم قد أمته فأمت عنا سننه**[٣]

عرف الحجاج بظلمه ، و بطشه ، وطغيانه، واستغلال نفوذه وسلطانه في قتل المعارضين والمناوئين ، وإشاعة الرعب والخوف بين أفراد الرعية ؛ ولذا فقد سجد

---

[١] - ينظر الدر المنثور السيوطي دار الفكر بيروت ١٩٩٣(ج ١٠ / ص ٧٨) و الحديث أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه

[٢] - [الأنفال : ٢]

[٣] - بغية الطلب في تاريخ حلب كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، دار الفكر، تحقيق: د. سهيل زكار ، ج٥/ص٢٠٩٦

الحسن البصري شكرا لله – تعالي - حين زف إليه خبر وفاة الحاج بن يوسف الثقفي ، وضرع إلي الله - تعالي- متمنيا عليه أن يقضى علي ما سنه الحجاج من ظلم وبطش كما قضى عليه هو فموت الحجاج هو موت حقيقي ، حيث خرجت روحه إلي بارئها وأما موت السنة فالمراد بالموت هو الإفناء حيث شبهت السنة بكائن حي ، ثم حذف هذا الكائن ، واتى بشيء من لوازمه وهو الموت ذلك علي سبيل الاستعارة المكنية .

وهذه الاستعارة تكشف عن قوة هذه السنة ومدي تأثيرها في النفوس ومقدار استفحالها حتى نمت وترعرعت وأصبحت تضرب بجذورها في الأعماق فهي قابلة للنمو والتطور ، وذلك ينبيء عن خطورتها وتفشيها في النفوس .

الموطن التاسع :

عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن حميد قال : بينما الحسن في يوم من رجب في المسجد ، وهو يمص ماء ويمجه تنفس تنفسا شديدا ثم بكى حتى ارتعدت منكباه ، ثم قال : (لو أن بالقلوب حياة لو أن بالقلوب صلاحا لأبكيتكم من ليلة صبيحتها يوم القيامة ! إن **ليلة تمخض عن صبيحة يوم القيامة** ما سمع الخلائق بيوم قط أكثر فيه من عورة بادية[١]

بينما الحسن في يوم من رجب في المسجد وهو يمص ماء ويمجه تنفس تنفسا شديدا ثم بكي حتى ارتعدت منكباه؛ ذلك لأنه تذكر يوم القيامة وما فيه من الحسرة والندامة ، ثم توجه بالنصح لإخوانه وجلسائة مذكرا إياهم بهذا الموقف متمنيا قلوبا واعية وأذانا صاغية ليبكيها من ليلة صبيحتها يوم القيامة إنه يخاف من هذه الليلة التي يتمخض عنها يوم القيامة : فهي ليلة لا شك أن لها مهابة وجلالا ؛ إذ هي آخر ليلة في الدنيا ، إنها ليلة ينسلخ من سوادها ضوء يوم جديد يوم لم تعرف الخلائق له مثيلا فهو يوم العورات البادية ، والعيون الباكية ، والقلوب الواجفة ، والأبصار الخاشعة إنه يوم القيامة .

---

[١] - حلية الأولياء ج٢/ص١٤٣

لقد أبان القران عن إيجاد النهار من الليل بالسلخ وجعله آية من آيات الله وعلامة علي قدرته قال – تعالى - : (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ)[١]
فالتعبير القرآني عن هذه الظاهرة في هذا الموضع تعبير فريد ، إذ يصور النهار متلبساً بالليل؛ ثم ينزع الله النهار من الليل فإذا هم مظلمون ، انه تعبير مصور للحقيقة الكونية أدق تصوير .[٢]

أما الإمام فقد عبر عن إيجاد يوم القيامة من ليلتها بالتمخض ذلك لان القران يلفت الأنظار إلي نعمة الله - تعالى- وآلائه في إيجاد النهار من الليل في دعوة للأمل والنشاط والإقبال على الحياة واغتنام الأيام فيما يفيد أما الإمام فهو يتحدث عن يوم طال انتظاره انه يوم ذو مواصفات خاصة ، فهو ليس كأيامنا بل مقداره خمسون ألف سنة ، إنه يوم الحساب والمجازاة ؛ ولذا آثر الإمام التعبير عن انسلاخه من الليل بالتمخض ليميزه بتبعاته ومواصفاته ، ولتزداد القلوب منه مهابة وخشية وإجلالا فاستعار المخاض ثم اشتق من تمخض بمعنى انفصل وانسلخ على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية التي تدعو إلى الترقب والحذر والاستعداد بل والخوف من هذا المارد الذي يولد بمخاض وتعب ومشقة .

كما يمكن أن يراد التشبيه بحال الولادة فحذفت واتى بشيء من لوازمها (المخاض) على سبيل الاستعارة المكنية .

---

[١] - يس٣٧
[٢] - في ظلال القرآن سيد قطب- (ج ٦ / ص ١٦٧)

الفصل الثاني
بلاغة الاستعارة في كلام الحسن البصري
في مقام الحِكَم

الموطن الأول :

عن معمر عن يحيى بن المختار عن الحسن قال : (إن المؤمنين **قوم أوثقهم القرآن**[١] وحال بينهم وبين هلكتهم ، إن **المؤمن أسير في** الدنيا يسعى في فكاك رقبته لا يأمن شيئا حتى يلقى الله - عز وجل- يعلم أنه مأخوذ عليه في ذلك كله[٢]

من بين حكمه الغالية التي ترسم صورة للمؤمن الحق وما ينبغي أن يكون عليه من محاسبة نفسه أولا بأول والتحلي بالورع والتقشف والتوبة والإنابة والسير على منهج الله القويم الذي ارتضاه لعباده المؤمنين ، فالمؤمنون ليسوا أحرارا في فعل ما يشتهون، وإنما هم مقيدون بمنهج القران وتعاليمه في جميع مناحي حياتهم وهذا ما أشار إليه الإمام الحسن البصري بقوله : (إن المؤمنين قوم أوثقهم القران وحال بينهم وبين هلكتهم)

والمتأمل في هذه الكلمات يجد أن القران لم يوثقهم ولم يقيدهم وإنما حدد لهم منهجا يسيرون عليه ممثلا في أوامره ونواهيه فكان التزامهم بتلك الأوامر والنواهي والسير علي منهاجه بمثابة القيد الذي يحد من حرية حركتهم ، وهكذا فقد استعير الوثاق للالتزام والانضباط بجامع التقييد وعدم الحرية في الحركة في كل ، ثم اشتق أوثق بمعنى ضبط والزم وحدد علي سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ،

---

[١] - الوثاق: هو الرباط الذي يستوثق به ، والمِيثاقُ العهد مِفْعال من الوَثاق وهو في الأصل حبل أو قيْد يُشدّ به الأسير والدابة.. لسان العرب - (ج ١٠ / ص ٣٧١) و يقال : أوْثَقَه في الوَثاق شَدَّه قال الله تعالى (فَشُدُّوا الوَثَاقَ) محمد ٤ والوثاق بكسر الواو لُغَة فيه. والوَثِيقُ الشَّيْءُ المُحكَم والجَمْعُ وثاق بالكسر. وقد وَثُقَ من باب ظَرُف أي صار وَثِيقاً ووَثَّقَ الشَّيْءَ تَوْثِيقاً فهو مُوَثَّق. مختار الصحاح – الرازي مكتبة لبنان ناشرون بيروت ١٩٩٥، محمود خاطر (ج ١ / ص ٣٣٥) وقوله تعالى : (فَشُدُّوا الوَثَاقَ) مجاز عن الأسر بغاية الاستيلاء والقهر . نظم الدرر البقاعي دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٥ م عبد الرزاق غالب المهدي (ج ٨ / ص ٨٠)

[٢] - حلية الأولياء ج٢/ص١٥٧

وهذه الاستعارة كما نرى قد أظهرت مدى الحرص والانضباط و الالتزام ؛ إذ جعلت من هذا الانضباط قيدا يحول بين المؤمن وبين فعل ما يخالف تعاليم القران الذي فيه نجاته من الهلكة ، وأخرجت هذا الأمر المعنوي وهو تحري السير وفق منهج القران الكريم بصورة حسية ممثلة في هذا الوثاق الذي يقيد الحركة ويحد من الحرية .

الموطن الثاني :

عن ثابت عن سالم عن الحسن قال : (ضحك المؤمن غفلة من قلبه ، وعن حماد عن حميد عن الحسن قال **:(كثرة الضحك تميت القلب** [١]

الضحك هو : انبساط الوجه وبدو الأسنان من السرور[٢]

والإكثار منه كما يذكر الإمام يميت القلب ويجعله جثة هامدة ؛ لأنه يذهب الوقار ويجعل القلب مغمورا في الظلمات مغموسا فيها ، فيصيره كالأموات لما يرثه من قسوة مفضية إلي غفلة مميتة ، وليس عجبا فللقلب حياة وموت : فحياته بدوام الطاعة وموته بإجابة غير الله – تعالي- من النفس والهوى والشيطان[٣]

قال الماوردى : (واعتياد الضحك شاغل عن النظر في الأمور المهمة ، مذهل عن الفكر في النوائب المسلمة ، وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار ، ولا لمن وسم به خطر ولا مقدار)

وقال حجة الإسلام : (كثرة الضحك والفرح بالدنيا سم قاتل يسرى في العروق ، فيخرج من القلب الخوف والحزن وذكر الموت وأهوال القيامة، وهذا هو موت القلوب[٤]

ولذا فان الإمام يحذر من الإكثار من الضحك ؛ لأنه يجعل القلب لاهيا قاسيا كالحجارة أو اشد قسوة ، مشغولا بالشهوات والملذات ، لا يتعظ ولا يعتبر بل لا إحساس عنده ولا شعور لديه ، فهو مغيب عما يفيده ، كأنه ميت لا فائدة ترجى منه ،

---

[١] - حلية الأولياء ج٢/ص١٥٢

[٢] - تاج العروس محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، دار الهداية، تحقيق: مجموعة من المحققين١/٦٧٤١

[٣] - فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى مصر ١٣٥٦هـ، الطبعة: الأولى ٦٨/٥

[٤] - فيض القدير ٩٩/٣

والموت ضد الحياة وهو مستعار لأثر كثرة الضحك علي القلب ؛ لان القلب لا يموت موتا حقيقيا إلا بموت الإنسان ومفارقته للحياة ؛ فاستعير الموت لحال الغفلة التي عليها قلب المكثر من الضحك ، ثم اشتق من الموت(تميت) بمعني تجعل القلب قاسيا لاهيا علي سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

وهذه الاستعارة كما نرى صورت غفلة القلب وقسوته أفضل تصوير؛ حيث أحالت هذا القلب إلي الموت والفناء لعدم الفائدة المرجوة منه ،

والإمام بلا شك متأثر بحديث رسول الله- صلي الله عليه وسلم - الذي رواه الإمام أحمد **عن أبي هريرة قال : قال النبي – صلى الله عليه و سلم– : (لا تكثروا الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب** [١]

والجدير بالذكر أن رسول الله - صلي الله عليه وسلم - كان في معظم أحواله لا يزيد عن التبسم ، وربما زاد علي ذلك فضحك ، والمكروه من ذلك إنما هو الإكثار منه أو الإفراط فيه ؛ لأنه يذهب الوقار . [٢]

الموطن الثالث :

عن محمد بن مصعب قال : قال : الحسن البصري (نظرت **في السخاء فما وجدت له أصلا ولا فرعا إلا حسن الظن بالله - عز وجل - وأصل البخل وفرعه سوء الظن بالله - عز وجل** - [٣]

في مقابلة بديعة بين السخاء والبخل ، بين الجود والشح ، بين حسن الظن بالله وسوء الظن به - تعالي - يتخذ الإمام الحسن البصري من القصر طريقا لتأكيد ما تيقن منه وتثبيت ما توصل إليه، مستعينا بالاستعارة المكنية لتجلية الصورة وتقريبها إلي الأذهان : فصور كلا من السخاء والبخل بشجرة عظيمة لها أصول و فروع ، ثم

---

١ – الأدب المفرد – البخاري دار البشائر الإسلامية – بيروتالطبعة الثالثة ، ١٩٨٩محمد فؤاد عبدالباقي ٩٨/١رقم ٢٥٣

٢ – ينظر فتح الباري شرح صحيح البخاري: دار المعرفة – بيروت، تحقيق: محب الدين الخطيب، ٢٦١/١٧

٣ - شعب الإيمان البيهقي، دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، محمد السعيد بسيوني زغلولج٧/ص٤٤٠ رقم ١٠٩٠١

حذف المشبه به ، وأتى بشيء من لوازمه وهو : (الأصل والفروع) ، وأسند (الأصل والفرع) لكل من (السخاء والبخل) علي سبيل الاستعارة التخييلية .
وهذه الاستعارة كما نرى صورت السخاء بشجرة عظيمة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتى أكلها كل حين بأذن ربها: فاصلها وفروعها لم يكن إلا اليقين بما عند الله وحسن الظن به – تعالي- ،
وأما البخل والشح فلا أصل له ولا فرع سوى الشك وسوء الظن بالله - تعالي - وهكذا فقد صورت الاستعارة كلا من السخاء والبخل أفضل تصوير .

الموطن الرابع :

عن أبي سلمة سليمان بن سليم الحمصي ، عن الحسن البصري قال : (لا تجالس صاحب هوى ؛ **فيقذف في قلبك ما تتبعه عليه فتهلك** ، أو تخالفه فيمرض قلبك[١]

عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه ،[٢]
ومن هذا المنطلق فان الإمام يحذر من مجالسة أصحاب الهوى ؛ لأن جليسهم لا ينجو من معضلتين : إما أن يحاكيه في إتباع الهوى فيهلك ، و إما أن يخالفه في ميله وهواه فيمرض قلبه ويفتن .
والإمام يتخذ من الاستعارة التبعية طريقا لإظهار مدى تأثير الهوى في القلب ، فاستعار القذف للدلالة علي أن الإلقاء إلقاء بجرح إلقاء بهتك وقوة وشدة
وهذه الاستعارة : استعارة قرآنية : يقول الله - تعالي - : (لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) [٣]
والمعنى والله أعلم ": ليس من شأننا أن نتخذ لهوا ، وإنما الذي من شأننا وحكمتنا ، أن نلقى بالحق الذي أرسلنا به رسلنا ، على الباطل الذي تشبث به الفاسقون { فَيَدْمَغُهُ } أي : فيقهره ويهلكه ويزيله إزالة تامة .

---

[١] - الاعتصام أبو إسحاق الشاطبي، دار النشر: المكتبة التجارية الكبرى - مصر ج١/ص٨٣
[٢] - شعب الإيمان للبيهقي - (ج ٢ / ص ٣٠٨)
[٣] - الأنبياء ١٧، ١٨

والتعبير القرآني البليغ ، يرسم هذه السنة الإلهية في صورة حسية متحركة حتى لكأنما الحق قذيفة تنطلق بسرعة فتهوى على الباطل فتشق أم رأسه ، فإذا هو زاهق زائل [١] والمتأمل في النظم القرآني يجد أنه قد استُعير لإيراد الحقِّ على الباطل القذف وهو الرمي البعيد المستلزم لصلابة المرمى ، والدمغ الذي هو كسر الدماغ بحيث يشق غشاؤه المؤدي إلى زهوق الروح تصويرا لابطاله ومبالغة فيه ،) [٢]

ولا شك أن الاستعارة هنا في قول الإمام الحسن البصري : (لا تجالس صاحب هوى ؛ **فيقذف في قلبك**) تظهر مدى الخطر الداهم الذي ينتظر جليسه ؛ فالأمر لا يقف عند حد الترغيب أو التحفيز فحسب ، وإنما يصل إلى قذف القلب وإصابته بالهوى إصابة بالغة يصبح جليسه بين أمرين أحلاهما مر: إما الإتباع فالهلاك ، وإما المخالفة فالمرض .

وهكذا فان الاستعارة قد صورت هذا المعنى، وأخرجته في صورة حسية متحركة ومرئية وملموسة ؛ فكان لها من الأثر البليغ مالا ينكر ، والوقع الطيب مالا يجحد .

الموطن الخامس :

عن صالح المري قال كان الحسن يقول : (**تفقدوا الحلاوة في ثلاث** : الصلاة والقرآن والدعاء ، فإن وجدتموها فاحفظوا واحمدوا الله على ذلك، وإن لم تجدوها فاعلموا أن أبواب الخير عليكم مغلقة[٣]

يرشد الإمام إلى تفقد الحلاوة في ثلاث : الصلاة والقرآن والدعاء ، وكما هو معلوم فالحلاوة إنما تكون في المطعومات والمذوقات ، وعلى هذا فقد جاءت الحلاوة هنا على سبيل الاستعارة الأصلية التصريحية : حيث شبهت الحالة المحمودة التي يعيشها المسلم المحافظ على هذه الثلاث من اللذة والمتعة والقبول والرضا والإقبال بالحلاوة بجامع التمتع واللذة وميل القلب في كل ،

---

[١] - الوسيط لسيد طنطاوي - موقع التفاسير (ج ١ / ص ٢٨٨٨)
[٢] تفسير البيضاوي : دار الفكر - بيروت(٤ / ٨٦)
[٣] - شعب الإيمان رقم ٧٢٢٦ ج٥/ ٤٤٧

وهذه الاستعارة تكشف عن مقدار هذه اللذة وتلك المتعة وتقربها إلى الأذهان في صورة حسية ملموسة و مذاقة .

أو شبهت العبادات بالمذوقات حلوة الطعم ، فحذف المشبه به ، واتى بشيء من لوازمه (الحلاوة) على سبيل الاستعارة المكنية .

واختيار الحلاوة هنا لميل النفس إليها والتلذذ بتناولها كما أنه - رضي الله عنه - متأثر بأحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم -[1]

الموطن السادس :

عن عقبة بن خالد العبدي قال : قال الحسن : (**إن القلوب تموت وتحيا ، فإذا هي ماتت** فاحملوها على الفرائض، فإذا هي أحييت فأدبوها بالتطوع[2]

يغوص الإمام - رضي الله عنه- في عالم القلوب مبينا أنها تموت وتحيا كاشفا النقاب عن كيفية التعامل معها في كلتا الحالتين: ففي حالة موتها يجب حملها على الفرائض حتى تعود إلى نشاطها ، وأما في حالة حياتها فيجب تأديبها زيادة على الفرائض بالتطوع من الأعمال ،

والقلوب كما هو معلوم لا تموت موتا حقيقيا إلا بموت صاحبها ، وعلى هذا فالمراد هنا أنها تتقلب بين القسوة والرقة بين الغفلة واليقظة بين البلادة والاستجابة ، وقد قيل إن القلوب تموت بالجهل وتحيا بالعلم ، تموت بالغفلة والانغماس في الظلمات وتحيا بالخوف والحزن وذكر الموت وأهوال القيامة ،

---

[1] - عَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُعَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَان أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ صحيح البخاري رقم ١٥ (ج ١ / ص ٢٦) وعَنْ مُعَاذِ بن جَبَلٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ حَقِّهِ عَلَيْهَا، وَلا تَجِدُ امْرَأَةٌ حَلاوَةَ الإِيمَان حَتَّى تُؤَدِّيَ حَقَّ زَوْجِهَا، وَلَوْ سَأَلَهَا نَفْسَهَا عَلَى قَتَبٍ" المعجم الكبير للطبراني - دار النشر: مكتبة الزهراء – الموصل ١٩٨٣، الطبعة: الثانية، حمدي بن عبدالمجيد السلفي رقم ١٦٥١٤ (ج ١٤ / ص ٤٥٠)

[2] - الزهد لابن حنبل دار الريان للتراث – القاهرة – ١٤٠٨، الطبعة: الثانية، عبد العلي عبد الحميد حامد ج١/ص٢٦٧ نثر الدر (ج ٥ / ص ١٣٤)

فالموت والحياة هنا واردان على سبيل الاستعارة : حيث شبهت القسوة التي تلحق القلب بالموت بجامع عدم الاستجابة في كل ، فالقلب أصبح كالموات لا حياة له ولا فائدة ترجى منه ، فهو كالعدم سواء في عدم النفع ،
كما شبه انشراح القلب وتأثره واستجابته وخشوعه وخضوعه لما يرى ويسمع فينتفع صاحبه ويستقيم أمره بالحي الذي يرى ويسمع ويحس ويشعر- بجامع التأثر والاستجابة في كل ، ثم اشتق تموت وتحيا على سبيل الاستعارة التبعية .
و الاستعارة الأولى كما نرى تكشف عن مقدار جفاء القلب وقسوته وعدم استجابته ، والثانية تكشف كذلك عن مدى رقته واستجابته وتأثره، كما أنها تقرب المعنى وتجسده ، وتخرجه في صورة حسية مشاهدة وملموسة .

الموطن السابع :

وقال - رضي - الله عنه : **من دخلَ مَدَاخِلَ التُّهَمةِ لَم يكُنْ لَهُ أجرُ الغَيْبةِ** .[1]
في دعوة صريحة للورع و الاستقامة والتنزه والبعد عن مواطن الشبهات يبين الإمام - رضي الله تعالى عنه - حرمان من وضع نفسه في مداخل التهمة من أجر الغيبة؛ ذلك لأنه لم يترفع بنفسه ، ولم ينزه ساحته من إساءة الظن به ، ورحم الله الفاروق - رضي الله عنه - حين قال : (من عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من أساء الظن به) [2]
والتهمة لا مدخل لها وإنما شبهت بصرح عظيم وبيت كبير له مداخل عدة لا يؤتى إليه إلا من خلالها بجامع أن كلا منها يتوصل إليه بوسيلة ما ، ثم حذف المشبه به ، وأتى بشيء من لوازمه وهو (مداخل) على سبيل الاستعارة المكنية ،
وإسناد المداخل للتهمة يلقى بظلاله عليها رهبة منها ، وخوفا من اقتحامها ، كما أنه يجسد هذه المنافذ المؤدية إلى التهمة ويصورها أفضل تصوير .

---

[1] - نثر الدر أبو سعد منصور بن الحسين الآبي دار الكتب العلمية بيروت لبنان - ٢٠٠٤ م الطبعة : الأولى (ج ٥ / ص ١٣٥)
[2] - الدر المنثور السيوطي، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٩٩٣- (٧ / ٢٢)

الموطن الثامن :

(سُئل - رضي الله عنه - عن قوله - تعالى - : ' إنْ الذين يَشْتَرُون بعَهْد الله وأيْمانِهِمْ ثمناً قليلاً ' ما الثمنُ القليلُ ؟ قال : الدُّنيا بحذافيرها . وقال **: الدنيا تطلبُ الهاربَ منها ، وتهرُبُ من الطالب لها ، فإن أدْركت الهارب منها جرحَتهُ ، وإن أدركها الطالبُ لها قتلتُه .)** [١]

بكلمات فلسفية متعمقة تغوص في الأعماق يكشف الإمام عن حقيقة العلاقة بين الإنسان والدنيا : فحال الإنسان مع الدنيا لا يخلو من أمرين:

إما أن يكون طالبا للدنيا ،وإما أن يكون مطلوبا منها ،

أو بمعنى آخر أن الدنيا مع الإنسان لا يخلو حالها من أمرين:

إما أن تكون طالبة للإنسان أو هاربة منه ، فإذا كان الإنسان طالبا ومطلوبا والدنيا طالبة ومطلوبة ، فالدنيا تطلب الهارب منها ، وتهرب من الطالب لها فإن أدركت الهارب منها جرحته ، فكان تأثيرها فيه أخف؛ لأنه يهرب منها ، وإن أدركت الطالب لها قتلته ؛ لأنه يكون مقبلا عليها طالبا لها ،

و(الجرح) مستعار للإيذاء وكذا(القتل) مستعار للهلاك والضياع

وكما نرى فكل من الاستعارتين قد كشفتا الأثر البالغ للدنيا في كلتا الحالتين أقوى تأثير وأوضح بيان .

الموطن التاسع :

قال الحسن البصري- رحمه الله- : **(من نافسك في دينك فنافسه ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره)** [٢]

---

[١] - نثر الدر (ج ٥ / ص ١٢٠) والاية[آل عمران : ٧٧]

[٢] - إحياء علوم الدين تأليف: محمد بن محمد الغزالي أبو حامد: دار االمعرفة - بيروت ج٣/ص٢٠٧ مصنف ابن أبي شيبة مكتبة الرشد - الرياض - ١٤٠٩، الطبعة: الأولى، تحقيق: كمال يوسف الحوت رقم ٣٥٢٠٣ [جزء ٧ - صفحة ١٨٨] والزهد لأحمد بن حنبل ٢١٧/١

بكلمات موجزة تناسب المقام يفرق الإمام بين التنافس في الدين والتنافس في الدنيا : فالأول تنافس محمود يسمو بالإنسان إلى أعلى درجات القرب من الله - تعالى - وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ،
وأما الآخر فهو تنافس مذموم يجعل الإنسان خاوي القلب إلا من حب الدنيا والحرص عليها؛ فتكون الخسارة في الدين والدنيا .

وكما نرى فالإمام يرشد إلى ترك التنافس في الأمور الدنيوية بل وإهمالها وتركها مستعينا بالاستعارة التبعية : حيث استعار الإلقاء للإهمال والترك ، إنه ترك بازدراء وإهمال باحتقار !
وكم كان الإمام موفقا في اختيار موطن الإلقاء في إشارة واضحة إلى أثر هذا التنافس على النفس ! انه القتل والذبح وفى ذلك ترهيب كبير لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

الفصل الثالث
بلاغة الاستعارة في كلام الحسن البصري في مقام التحذير من الدنيا

الموطن الأول :

عن عبد المؤمن بن عبيد الله، عن الحسن، قال: **يا ابن آدم بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما** جميعا ، يا ابن ادم إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم فيه ، الثواء ههنا قليل ، والبقاء هناك طويل ،

يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك فإنها عن قليل قبرك ، **واعلم أنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك** ، رحم الله رجلا نظر فتفكر وتفكر فاعتبر، وأبصر فصبر ستعلم يا لكع الناس ثلاثة : مؤمن وكافر ومنافق: **فأما المؤمن فقد لجمه الخوف** وقومه ذكر العرض ، وأما الكافر فقد قمعه السيف وشرده الخوف فأذعن بالجزية وسمح بالضريبة، وأما المنافق ففي الحجرات والطرقات يسرون غير ما يعلنون ويضمرون غير ما يظهرون[١]

مستهلا تحذيره بالنداء (يا ابن آدم) لإيقاظ الهمم وشد الانتباه وتوجيه الخطاب لأهميته، و ليقع الإقبال علي ما بعده مذكرا مخاطبه بحقيقة نشأته ، وانه إلى فناء مستعينا بالمقابلة بين صفقة رابحة وأخرى خاسرة ، متخذا من الاستعارة التبعية طريقا لتجلية الصورة وتوضيح المعنى وتثبيته فقال : (بع)وليس هنا بيع حقيقي لأن البيع كما عرفه الراغب: (إعطاء المثمن وأخذ الثمن)[٢] وإنما المراد الاستبدال ، فاستعير له على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية،

واختار البيع هنا ولم يقل (اشتر آخرتك بدنياك)لان الربح في البيع كما أشار الإمام الرازي : (يقين ناجز ، والربح الحاصل في الشراء شك مستقبل)[٣]

---

[١] - البيان والتبيين الجاحظ دار صعب بيروت فوزي عطوي ج١/ص٤٥٢ ، -حلية الأولياء ج٢/ص١٥٥

[٢] - المفردات في غريب القرآن الراغب الاصفهانى كتاب الجمهورية بيع ج١/ص٦٧

[٣] - التفسير الكبير - (ج ١١ / ص ٣٤٤)

ثم قوى هذه الاستعارة بذكر ملائم المشبه به وهو قوله : (تربحهما ،وتخسرهما) فكان ترشيحا للاستعارة يبعدها عن الحقيقة ، ويقوى فيها دعوى الاتحاد التي هي مبنى الاستعارة والتي عدها ابن أبى الإصبع من أجل الاستعارات يقول : (وأجل الاستعارات الاستعارة المرشحة كقوله – تعالى- : " **أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**"[١]

فإن الاستعارة الأولى وهي لفظة الشراء رشحت الثانية وهي لفظتا الربح والتجارة للاستعارة. والله أعلم).[٢]

ثم يتابع تحذيره فيقول : (يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك فإنها عن قليل قبرك ، واعلم أنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك)

مذكرا الإنسان بمصيره المحتوم في باطن الأرض محذرا إياه من ضياع عمره وتسلله من بين يديه

وقوله : (واعلم انك لم تزل في هدم عمرك)

استعارة إذ الإنسان لا يهدم عمره وإنما يعيشه ، كما أن العمر ليس بناء حتى يهدم وإنما هو التحذير من التفريط فيه إلا فيما يفيد .

وهذه الاستعارة يمكن إجراؤها في (هدم) فتكون استعارة(تبعية) : حيث شبه الانقضاء والعيش بالهدم بجامع الفناء والقضاء في كل ، ثم اشتق من الهدم يهدم بمعنى يفنى وهذه الاستعارة تقرب المعنى وتظهره في صورة مشاهدة ومحسة : في صورة هدم وتخريب ونقصان وتراجع مستمر ، كما يمكن إجراؤها في (عمر) فتكون الاستعارة استعارة (مكنية) حيث شبه العمر بالبناء ، ثم حذف المشبه به ، واتى شيء من لوازمه وهو الهدم ، وإسناد الهدم للعمر استعارة (تخييلية) وهذه الاستعارة أيضا استعارة موحية ومؤثرة: حيث صورت العمر ببناء مشيد يتعرض كل يوم للهدم والتخريب فهو في تناقص مستمر وعوار دائم ، وفى ذلك تجسيد للعمر، وإخراج له في صورة حسية ملموسة يتأثر الإنسان لرؤيتها في تناقص مستمر وخراب دائم .

---

[١] - البقرة ١٦

٢ - تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر ابن أبي الأصبع- (ج ١ / ص ٦)

ثم يختم تحذيراته بما ينبيء عن عقلية فذة تغوص في الأعماق لتعطى تصورا شاملا مستخدما أسلوب التقسيم للتفصيل بعد الإجمال ، والإيضاح بعد الإبهام لتثبيت المعاني وتمكينها : (حيث يحاط بالشيء من كافة أقسامه ، ويحصر من جميع وجوهه ، فلا يبقى أمام العقل إلا أن يسلم بما عرض عليه ، ويتفرغ لهضمه واستيعابه) [١]

ففي نظرة ثاقبة لبواطن الأمور يقسم الناس إلي ثلاثة أقسام : مؤمن وكافر ومنافق، ثم يقف علي كل قسم بما يميط اللثام عنه :
فالمؤمن دائم الخوف ، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، ألجمه الخوف أي : كان الخوف له لجاما[٢] يحول بينه وبين فعل ما يشتهى فشبهت الحيلولة باللجام بجامع المنع في كل، ثم استعير المشبه به للمشبه، ثم اشتق من اللجام (ألجم) بمعنى حال ، ومنع على سبيل الاستعارة (التبعية التصريحية)
و هذه الاستعارة تظهر مدى التحكم والسيطرة ، وتكشف عن مقدار أثر الخوف في النفس ودقة تأثيره في الحواس، فهو يقود المؤمن كيفما يشاء : تحكم مطلق، وقيادة شاملة ، فكان الفوز بحسن العرض علي الله - تعالي - .

الموطن الثاني :

عن هاشم بن المتوكل الإسكندراني ، عن الحسن البصري ، قال : مسكين ابن آدم **رضي بدار**[٣] **حلالها حساب ، وحرامها عذاب** ، إن أخذه من حله حوسب بنعيمه ، وإن أخذه من حرام عذب به ابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله ، ويفرح بمصيبته في دينه ، ويجزع من مصيبته في دنياه[٤]
كدأبه دائم النصح والتحذير من الدنيا والركون إليها، فهو مشفق علي الإنسان الذي ركن إلي الدنيا، ورضي بها، واتخذها مقرا مع أن حلالها حسابن وحرامها عذاب

---

١ - دراسات منهجية فى علم البديع الشحات أبو ستيت الطبعة الأولى ١٩٩٤م ٢٤٥
٢ - اللِّجَامُ لِلْفَرَسِ قِيلَ عَرَبِيٌّ وَقِيلَ مُعَرَّبٌ وَالْجَمْعُ لُجُمٌ مِثْلُ كِتَابٍ وَكُتُبٍ وَمِنْهُ قِيلَ لِلْخِرْقَةِ تَشُدُّهَا الْحَائِضُ فِي وَسَطِهَا لِجَامٌ وَتَلَجَّمَتْ الْمَرْأَةُ شَدَّتْ اللِّجَامَ فِي وَسَطِهَا وَأَلْجَمْتُ الْفَرَسَ إلْجَامًا جَعَلْتُ اللِّجَامَ فِي فِيهِ وَبِاسْمِ الْمَفْعُولِ سُمِّيَ الرَّجُلُ . المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ل ج م -(ج ٨ / ص ٢٣٢)
٣ - الدار اسم جامع للعرصة والبناء والمحلة وكل موضع حل به قوم فهو دارهم لسان العرب دار ٤ /٢٩٥
٤ - الزهد لابن أبي الدنيا(ج ١ / ص ٢٦٢) ٢٦١ ،إحياء علوم الدين ج٣/ص٢٠٩

قولـه : (رضـي بـدار) اسـتعارة ؛ لان الـدار: مكـان يسـكن المـرء فيـه أو يحـل بـه والدنيا ليست دارا حقيقية يسكنها الإنسان وينتقل في حجراتها، وإنما هي فترة زمانية يحياها الإنسان ويعيشها ، ولكن الإمام كعادته متأثر بالقران الكريم فكما استعار القران الدار للدنيا في كثير من الآيات استعارها الإمام : حيث شبهت الدنيا وما فيها من أحوال يعيشها الناس في حياتهم بالمكان الذي يأويهم ويجمع شملهم بجامع الاحتواء والشمول في كل : فالدنيا يركن إليها الإنسان في حياته وينتقل فيها ويستقر في أرجائها طيلة حياته تماما كاستقراره في داره ، وانتقاله في حجراتها ، ثم استعير المشبه به للمشبه علي سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية

وهذه الاستعارة كما نرى قد صورت الدنيا أجمل تصوير : حيث جعلتها دارا حقيقية لها أبعاد وحجر يأوى إليها الإنسان ويقر فيها، ولا يستطيع الاستغناء عنها .

كما أن هذه الاستعارة قد قربت علاقة الإنسان بالدنيا وصورتها في صورة محسوسة مشاهده ، يستوعبها الإنسان وتقر في ذهنه ، وذلك تمهيدا للتحذير منها ؛ فهي دار لها أبعاد ولكن إبعادها حلال وحرام فحلالها حساب ، وحرامها عذاب إن أخذه من حله حوسب بنعيمه ، وإن أخذه من حرام عذب به ،،،

ثم يتابع نصحه لابن ادم وكيف أنه يستقل ماله ولا يستقل عمله مع أنه سيترك ماله ولا ينفعه إلا عمله ، ثم هو يفرح بمصيبته في دينه بينما يجزع من مصيبته في دنياه .

الموطن الثالث :

عن إبراهيم بن عبد الله ابن أبي الأسود، عن الحسن أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز: (أما بعد، فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة، وإنما أنزل آدم عليه السلام من الجنة إليها عقوبةً، فاحذرها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها، والغنى منها فقرها، لها **في كل حينٍ قتيل، تذل** من أعزها، وتفقر من جمعها، هي كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه. فكن فيها كالمداوي جراحته، يحتمي قليلاً مخافة ما يكره طويلاً، ويصبر على شدة الدواء مخافة طول الداء. فاحذر هذه الدار الغدارة الختالة الخداعة **التي قد تزينت بخدعها ، وفتنت بغرورها، وحلت بآمالها، وسوفت بخطابها، فأصبحت**

كالعروس المجلوة، فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلهم قالية، فلا الباقي بالماضي معتبر، ولا الآخر بالأول مزدجر[1]

فهو يذكر أمير المؤمنين الزاهد الورع - عمر بن عبد العزيز - بحقيقة الدنيا وأنها دار ظعن وليست بدار إقامة ، فلا ينبغي الركون إليها، وكيف يركن إليها المرء وهى دار عقوبة الزاد منها تركها والغني فيها فقرها ، لها في كل حين قتيل تصرعه بحبائلها وتقضى عليه بمفاتنها ، فالكيس من دان نفسه فيها وكان علي حذر منها، لا يركن إليها ، ولا يطمئن لآمالها ، فهي كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه ،
وكما نرى فان قوله : (لها في كل حين قتيل) استعارة (تصريحية تبعية) فقتيل فعيل بمعنى مفعول، أي لها في كل يوم مقتول، والمراد به الضحية المفتون بزخارفها المخدوع بآمالها .

وهذه الاستعارة تزيد المتلقي ترهيبا وتخويفا وتحذيرا من شان هذه الدنيا التي احترفت القتل، وأجادت الفتك ، فلها في كل يوم صريع تصرعه وقتيل تقتله، فهل من متعظ ؟

كما أن قوله : (تزينت بخدعها) استعارة (مكنية) حيث شبهت الدنيا بالعروس ، ثم حذفت ، واتى بشيء من لوازمها وهو التزين ، ولكنها تزينت بالمكر والخداع ففتنت بغرورها ، وحلت بآمالها، وسوفت بخطابها ،
وقوله : (وسوفت بخطابها) استعارة(تصريحية أصلية) إذ الدنيا لا خطاب لها، ولا وعود لديها ، فاستعير الخطاب لإبداء الآمال والتغرير بالأمنيات ،
وهذه الاستعارة تكشف عن قوة الخداع ، ومقدار المكر الذي تمارسه الدنيا مع محبيها وراغبيها : حيث تبدى الآمال وتظهر الأمنيات إظهارا قويا يصل إلي حد النطق بالوعود والترغيب بالعهود ، وعود كاذبة، وعهود خادعة لا ثمرة لها إلا التأجيل والتسويف .

---

[1] - حلية الأولياءج٦/ص٣١٣ نهاية الأرب في فنون الأدب النويرى موقع الوراق (ج ٢ / ص ١١٨)

الموطن الرابع

في سنة اثنتين ومائة توجه العباس بن الوليد بن عبد الملك ، ومسلمة بن عبد الملك إلى يزيد بن المهلب بتوجيه يزيد بن عبد الملك إياهما لحربه ، وفيها قتل يزيد بن المهلب في صفر، وكان مروان بن المهلب وهو بالبصرة يحث الناس على حرب أهل الشام ، ويسرح الناس إلى يزيد ، وكان الحسن البصري - رضي الله عنه وأرضاه - يثبط الناس عن يزيد بن المهلب[١]

و كان يقول في تلك الأيام :

(أيها الناس الزموا رحالكم، وكفوا أيديكم ، واتقوا الله مولاكم ، ولا يقتل بعضكم بعضا على دنيا زائلة، وطمع فيها يسير ليس لأهلها بباق ،وليس الله عنهم فيما اكتسبوا براض،

إنه لم تكن فتنة إلا كان أكثر أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء ، وأهل التيه والخيلاء، وليس يسلم منها إلا المجهول الخفي ، والمعروف التقي ، فمن كان منكم خفيا فليلزم الحق ، **وليحبس نفسه عما يتنازع الناس فيه من الدنيا**، فكفاه والله بمعرفة الله إياه بالخير شرفا، وكفى له بها من الدنيا خلفا)[٢]

يتطرق الإمام الحسن البصري - رضي الله تعالي عنه- إلي الحديث عن الفتنة التي وقعت في سنة اثنتين ومائة مبينا أكثر أهلها ، محذرا من خطورة الانغماس فيها، كاشفا عن سبل الاعتصام منها ، فصدر حديثه بضمير الشأن (إنه) متخذا من القصر بطريق (النفي والاستثناء) سبيلا لتأكيد ما تكشف لديه من ارتباط الفتنة بالخطباء والشعراء والسفهاء وأهل التيه والخيلاء ؛ فهم أكثر أهلها، كما حصر السالمين منها علي صنفين ، مؤكدا هذه الحقيقة ب(لنفي والاستثناء) أيضا فقال : (وليس يسلم منها إلا المجهول الخفي والمعروف التقي) ز

ثم تناول سبل الوقاية والاعتصام منها ، فبدأ بالمجهول الخفي وما ينبغي عليه فعله من التزام الحقن وحبس النفس عما فيه التنازع حتى تكتب له السلامة ،

---

[١] - ينظر تاريخ الطبري : دار الكتب العلمية – بيروت ج٤/ص٨٢

[٢] - تاريخ الطبري ج٤/ص٨٤

والحبس هو : المَنْعُ والإمساكُ وهو ضِدُّ التَّخْلِيَة[١] والمراد به هنا البعد والتنزه عن المشاركة في التنازع ، فأبان عن ذلك بطريق الاستعارة: حيث شبه إلزام النفس وإبعادها عن المشاركة بالحبس بجامع المنع في كل، ثم استعير الحبس واشتق منه (يحبس) بمعنى يمنع علي سبيل الاستعارة(التصريحية التبعية)
وهذه الاستعارة كما نرى استعارة موحية ؛ تكشف عن مقدار المنع وكيفيته : فهو منع عام وشامل عن المشاركة في التنازع ، وهذا لن يتأتى إلا بحبس النفس ومنعها ، كما تكشف هذه الاستعارة عن خطورة النفس وقوة تأثيرها ، وأنها كالوحش الكاسر الذي لا يغفل عنه ولا يتهاون معه، بل إن الأمر يستلزم الحذر منه ، والسيطرة عليه بحبسه، وكبح جماحه ،
وهكذا فإن الاستعارة قد نقلت المعنى ، وصورته وقربته إلي الأذهان ،وأبرزته في صورة مشاهدة ومحسة لا تنكرها النفس ؛ فكان لها من التأثير ما لا ينكر.

الموطن الخامس :
(عن مبارك بن فضالة قال : سمعت الحسن يقول : **(فضح الموت الدنيا فلم يترك فيها لذي لب فرحا)** [٢]

يكشف الإمام- رضي الله عنه- أثر الموت على الدنيا - حيث يهجم عليها فيزيل متعها، ويقضى على زخارفها ، فتتكشف حقيقتها : «عرض زائل، ووديعة مستردة، لا تترك لذي لب فرحا، فيظل العاقل متحفزا مترقبا ، حذرا لا يأمن تقلباتها » متخذا من الاستعارة(التبعية) في قوله : (فضح الموت) سبيلا لتوضيح هذا الأثر،
والمراد ب (فضح الموت) اظهر وأبان ، وكشف المستور،،
وهذه الاستعارة تظهر بجلاء هذا الأثر: إنه فضح للعورات و تشهير بالسوآت .

---

[١] - تاج العروس حبس- (ج ١ / ص ٣٨٨٨)
[٢] - سير أعلام النبلاء ج٤/ص٥٨٥

الموطن السادس :

عن عبد الوهاب بن عطاء، عن عبيدة سعيد بن زربي، قال: سمعت الحسن يعظ أصحابه يقول: (**يا ابن آدم أنت اليوم في دار هي لافظتك** ، وكأن قد بدا لك أمرها، وإلى انصرام ما تكون سريعاً ،ثم يفضي بأهلها إلى أشد الأمور وأعظمها خطراً، فاتق الله يا ابن آدم، وليكن سعيك في دنياك لآخرتك؛ فإنه ليس لك من دنياك شيء إلا ما صدرت أمامك، فلا تدخرن عن نفسك مالك، ولا تتبع نفسك ما قد علمت أنك تاركه خلفك، ولكن تزود لبعد الشقة،)[1]

آمن - رضي الله عنه - بفناء الدنيا ، وزهد فيها ، ورغب عنها ، ونقل ما يتيقن هو منه في كلمات تنبض بالإحساس الصادق وتنطق بالحقيقة، متخذا من الاستعارة وسيلة لتجلية الصورة ، وتثبيتها ، وتقريبها إلى الملتقى حتى يشعر بنفس إحساسه فيتنفع بنصحه ، فها هو ذا يصور الدنيا بحيوان مفترس يلتهم ضحاياه : فيفرق جمعهم ،ويمزق شملهم ، ثم يلفظهم أشلاء متفرقة، لا حول لهم ولا قوة بجامع الغدر والهلاك في كل ، ثم حذف المشبه به وأتى بشيء من لوازمه وهو اللفظ على سبيل(الاستعارة المكنية)

وغير خاف ما يحدثه إسناد اللازم للمشبه (الاستعارة التخييلية) من تصوير بديع، و تخييل وتجسيد للغدر ، وكأننا نرى أمامنا الدنيا وما نفعله بأهلها في صورة محسة لا تخطئها العين ، فيحقق الوعظ المنشود ، والتحذير المراد .

رحم الله الإمام الحسن البصري رحمة واسعة ،
ونفعنا بعلمه إنه ولي ذلك والقادر عليه ،
والحمد لله أولا وآخرا ،
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،،،

---

[1] - حلية الأولياء ٢ / ص ١٤٠ ، ١٤١)

الخاتمة والنتائج

بعد هذه الرحلة الممتعة آن الأوان لوضع أهم ثمار هذا البحث ونتائجه والتي أرجو أن يكون قد حققها ،

ولعل أهم النتائج التي تمخضت عنها هذه الدراسة المتواضعة :

١- تذوق الاستعارة في كلام الإمام الحسن البصري ، وتحليل ما يقرب من ست وثلاثين استعارة من استعاراته تحليلا بلاغيا يظهر مدى ملاءمتها للمقام وصلتها بما دعا إليه إسلامنا الحنيف ، ممثلا في القران الكريم وسنه نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم -

٢- كثرة الاستعارة في كلام الإمام الحسن البصري لاسيما في مقام النصح والتحذير من الدنيا .

٣- حسن توظيفه للاستعارة خدمة للمعنى ووفاء للمقام .

٤- وضوح الاستعارة وسهولة تناولها .

٥- تأثره باستعارات القران الكريم والسنة النبوية المطهرة .

٦- قلة اعتماده على الاستعارة التمثيلية .

والله أسال أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم
انه ولى ذلك والقادر عليه
والحمد لله أولا وآخرا

أهم المصادر والمراجع

القران الكريم

١- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، دار الفكر - لبنـــان - ١٤١٦هـــــ- ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: سعيد المندوب
٢- إحياء علوم الدين، تأليف: أبو حامد الغزالي دار المعرفة – بيروت
٣- الأدب المفرد البخاري دار البشائر الإسلامية – بيروت
٤- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: أبو السعود محمد بن محمد العمادي دار إحياء التراث العربي – بيروت
٥- أساس البلاغة الزمخشري، دار النشر: دار الفكر - ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م
٦- أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني السيد محمد رشيد رضا الطبعة السادسة
٧- أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجا د عبد الغنى بركة مكتبة وهبة الطبعة الأولى
٨- الاعتصام، تأليف: أبو إسحاق الشاطبي، دار النشر: المكتبة التجارية الكبرى – مصر
٩- أفنان البيان د الشحات أبو ستيت ١٩٩٦م
١٠- الإيضاح في علوم البلاغة - الخطيب القزويني دار إحيـــاء العلـــوم – بيـــروت الطبعة الرابعة ، ١٩٩٨
١١- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح عبد المتعال الصعيدي مكتبه الآداب ١٩٩٩م
١٢- بغية الطلب في تاريخ حلب كمال الدين بن أبي جرادة دار الفكـــر، تحقيـــق: د. سهيل زكار.
١٣- البحر المديد أحمد بن محمد بن المهدي دار الكتب العلمية ـــ بيروت الطبعة الثانية ـــ ١٤٢٣ هـــ
١٤- البيان في ضوء أساليب القران د عبد الفتاح لاشين الطبعـــة الثانيـــة ١٩٨٥م دار المعارف .

١٥- البيان والتبيين: الجاحظ، دار النشر: دار صعب – بيروت: فوزي عطوي
١٦- تاج العروس من جواهر القاموس محمد مرتضى الحسيني الزبيدي دار الهداية، تحقيق: مجموعة من المحققين.
١٧- تاريخ الطبري بن جرير الطبري دار الكتب العلمية – بيروت
١٨- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر ابن أبي الأصبع موقع الوراق
١٩- التحرير والتنوير ــ الطبعة التونسية الطاهر بن عاشور دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس – ١٩٩٧
٢٠ – التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى
٢١- تفسير حقي موقع التفاسير المكتبة الشاملة الإصدار الثاني
٢٢- تهذيب الأسماء واللغات، تأليف: محي الدين بن شرف النووي دار الفكر – بيروت – ١٩٩٦، الطبعة: الأولى، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات
٢٣- الجامع الصحيح المختصر محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت – ١٤٠٧ – ١٩٨٧، الطبعة: الثالثة، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا
٢٤- جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية – بيروت –
٢٥- جمهرة اللغة دار العلم للملايين – بيروت – ١٩٨٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: رمزي منير بعلبكي
٢٦- جواهر البلاغة السيد احمد الهاشمي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة السادسة
٢٧- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني دار الكتاب العربي – بيروت – ١٤٠٥، الطبعة: الرابعة

٢٨- الحيوان الجاحظ، دار الجيل - لبنان/ بيروت - ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، تحقيق: عبد السلام محمد هارون
٢٩- دراسات منهجية في علم البديع د الشحات أبو ستيت الطبعة الأولى ١٩٩٤م
٣٠- الدر المنثور عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي دار الفكر - بيروت - ١٩٩٣
٣١- دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤١٥هـ ١٩٩٥م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د . التنجي
٣٢- الزهد، تأليف: أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، دار الريان للتراث - القاهرة - ١٤٠٨، الطبعة: الثانية، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد
٣٣- السنن الكبرى أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد الطبعة : الأولى ـ ١٣٤٤
٣٤- سير أعلام النبلاء محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٣، الطبعة: التاسعة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ، محمد نعيم العرقسوسي
٣٥ - شروح التلخيص دار السرور بيروت لبنان
٣٦- شعب الإيمان البيهقي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٠، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول
٣٧- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية الجوهري تحقيق أحمد عبد الغفور عطار دار العلم للملايين لبنان الطبعة الأولى ١٩٥٦
٣٨- صحيح مسلم، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي
٣٩- الطبقات الكبرى ابن سعد دار صادر بيروت

٤٠- صفة الصفوة عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج دار المعرفة - بيروت - ١٣٩٩ - ١٩٧٩، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمود فاخوري - د.محمد رواس قلعه جي
٤١- الطراز يحيى بن حمزة العلوى عبد الحميد هنداوى المكتبة العصرية صيدا بيروت الطبعة الأولى
٤٢- العقد الفريد، بن عبد ربه الأندلسي دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، الطبعة: الثالثة
٤٣- فتح الباري شرح صحيح البخاري أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني دار المعرفة - بيروت، تحقيق: محب الدين الخطيب
٤٤- فضيلة الشكر لله على نعمته محمد بن جعفر بن محمد بن سهل السامري أبو بكر دار الفكر - دمشق - ١٤٠٢، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد مطيع الحافظ ، د. عبد الكريم اليافي
٤٥- فيض القدير شرح الجامع الصغير عبد الرؤوف المناوي المكتبة التجارية الكبرى - مصر - ١٣٥٦هـ، الطبعة: الأولى
٤٦- في ظلال القرآن سيد قطب موقع التفاسير المكتبة الشاملة الإصدار الثاني
٤٧- الكامل في اللغة والأدب المبرد محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر العربي - القاهرة الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م
٤٨- لسان العرب ابن منظور دار صادر - بيروت، الطبعة: الأولى
٤٩- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ابن الأثير المكتبة العصرية بيروت ١٩٩٥محمد محي الدين عبد الحميد
٥٠- مختار الصحاح الرازي مكتبة لبنان ناشرون - بيروت - ١٤١٥ - ١٩٩٥تحقيق: محمود خاطر

٥١- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي المكتبة العلمية – بيروت
٥٢- المصنف في الأحاديث والآثار، تأليف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، مكتبة الرشد – الرياض – ١٤٠٩، الطبعة: الأولى، تحقيق: كمال يوسف الحوت
٥٣- المطول للتفتازانى طبعة أحمد كامل
٥٤- المعجم الكبير أبو القاسم الطبراني مكتبة الزهراء – الموصل – ١٤٠٤ – ١٩٨٣، الطبعة: الثانية، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي
٥٥- مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص دار السرور بيروت
٥٦- نثر الدر أبو سعد منصور بن الحسين الآبي دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان – ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٤ م الطبعة : الأولى تحقيق : خالد عبد الغني محفوظ
٥٧- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور البقاعي دار الكتب العلمية بيروت – ١٤١٥هـ – ١٩٩٥ م عبد الرزاق غالب المهدي
٥٨- نهاية الأرب في فنون الأدب النويري موقع الوراق
٥٩- الوسيط لسيد طنطاوي - موقع التفاسير
٦٠- وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، ابن خلكان دار الثقافة – لبنان، احسان عباس